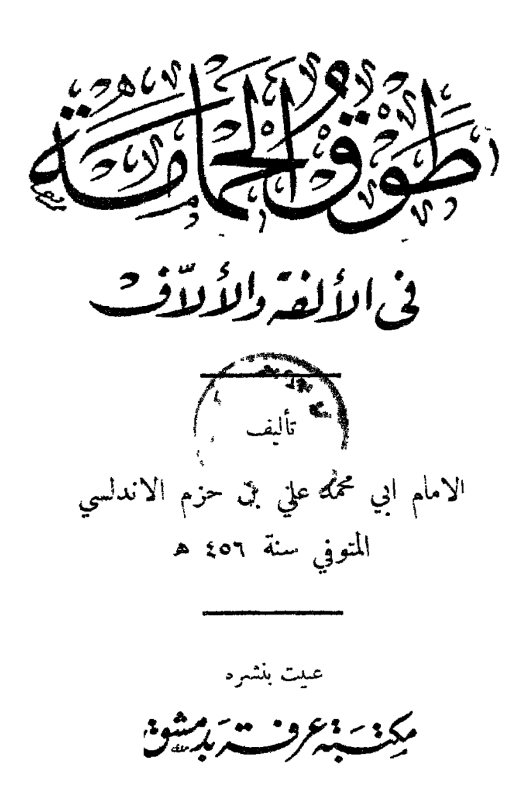


تأليف

الامام ابي محمد علي بن حزم الاندلسي
المتوفي سنة ٤٥٦ هـ

عنيت بنشره
مكتبة عرفة بدمشق



﴿ كلمة الناشر ﴾

كان اول معرفتي بطوق الحمامة ان رأيته في مكتبة المجمع العلمي العربي ، فرأيت خير كتاب في وصف الحب ، ودرس ادواره ، وتحليل حوادثه ، واحسن اثر في تراثنا الادبي يثبت للناس ان في ادبائنا من اوتي ملكة التحليل النفسي ، ومن استطاع ان يفهم الحب قبل عشرة قرون كما يفهمه الادباء اليوم ، وعجبت منا ومن هؤلاء المستشرقين كيف عنوا به ، ونشروه وخدموه ، وجهلناه ثم حسبناه كتاب دعارة ومجون فنلنا منه وعرّضنا بصاحبه ، ورأيت انه من العار علينا ان يكون الكتاب لنا ثم ينشر في كل لغات الناس قبل ان ينشر بيننا ، ولا نزاع في ان المكتبة العربية لم تغلق على كتاب مثله في فنه . فعزمت على نشره ليرى ادباؤنا عظمة الادب العربي وعلو ما وصل اليه ، من غير ان تضيرهم قراءته في اخلاقهم شيئاً ، بل انه سينفعهم حين يتحول ابن حزم الى واعظ تقي في فصليه الاخيرين : قبح المعصية . وفضل التعفف ، وسيرون فيها ما ينفرهم من الرذيلة ، ويحبب اليهم مكارم الاخلاق ويبعدهم عن دركات الشر والهلاك فيعلمون ان في نشره ابتناء الفضيلة وهذه القصد وعلى الله المتوكل

فقرات

مقتبسة من مقدمة الناشر الاول د . ك . بيتروف
الاستاذ في الجامعة الامبراطورية في بطرسبرغ (*)

الاستاذ بيتروف هو الرجل الذي استطاع ان يخرج للناس هذا الكتاب القيم ، وقد كاد يضيع فلا يبقى له من اثر ، وقد صدره بمقدمة طويلة ملأت اربع واربعين صفحة بالحرف الفرنسي الدقيق استهلها بشكر من ساعده على نشر الكتاب ، من رجال الادب ومعاهده ولاسيما مجمع العلوم ومعهد الآداب في بطرسبرغ ، ومكتبة جامعة لايد

ثم اهدى الكتاب الى البارون فيكتور روزن...

ثم شرع في درس الكتاب وصرح انه يختص بهذا الدرس القراء الذين لا يعرفون العربية ، فلم نر لترجمته كبير حاجة ، وانما اخترنا منه هذه الفقرات التي تبين لنا مقدار الجهد الذي يصرفه المستشرقون في سبيل نشر تراثنا العلمي والادبي وتطلعنا على مبلغ اهتمامهم بهذا الكتاب الذي يعد بحق من الاسفار الادبية النادرة المثال عند جميع الامم

قال الاستاذ :

لم يكن كتاب ابن حزم الموسوم بطوق الحمامة معروفاً قبل ان نشر دوزي في مجموعته لآثار لايد قطعاً منه صغيرة ، ويخصص له بضع صفحات من كتابه « تاريخ الاسلام في اسبانيا » يترجم فيها بعضاً من حوادث ابن حزم العاطفية وماكان من حبه العذري ، وقد خدمه دوزي وعرف به الناس

ولكن هذا المستشرق لم يشأ او لم يستطع ان ينشر اصله العربي ، فقام من

(*) طبع الدكتور بيتروف طوق الحمامة سنة ١٩١٤ في مطبعة بريل في مدينة ليدن

بعده فرنسيسكو بون بواغ يريد تحقيق هذه الامنية التي اوضحها وبين عزمه عليها لكثير من اصدقائه ، والتي مهد اليها بمحاولته تحليل الكتاب تحليلاً عاماً وترجمة فهرسته في مقالة نشرها سنة ١٨٩٩ عن كتاب الملل والنحل ولكن المنية عاجلته ولما يقدر على تحقيقها

ولم يكن في العالم الا نسخة واحدة من كتاب الطوق محفوظة في مجموعة قارنر في لايد وهي كراس مجلد عدد صفحاته ٢١٦ واسطر كل صفحة تتراوح بين العشر و خمسة عشر سطراً ، واضح الخط مشكول الشعر ، بين العناوين ، والحبر الاحمر مستفيض في اكثرها ، والناسخ يقظ جداً لايخونه قلمه الا نادراً ، وما الغموض (١) الذي يرى في الطوق الامن الاصل والمعنى لامن الخط والنسخ

ولكنها ليست بنسخة المؤلف ، وتاريخ نسخها متأخر عن عصره لانها نسخت في سنة ٧٣٨ للهجرة اي في سنة ١٣٣٧ للميلاد بقلم ناسخ مولع بها ، فرح بقدرته على اكمالها ، ثم ان الاسطر الاخيرة من الصفحة ١٧٦ تدلنا على ان كاتباً لم نعرف اسمه عمد الى اختصار الطوق وايجازه ، واختيار قسم من منظومه الجيد ، ولكنه قصر في هذه ايضاً ، فلم يثبت في اكثر الاحيان الا شطر البيت ، فنتج من هذا ان الاصل الصحيح للطوق ، لم يصل الينا ونحن نجهل كون الكاتب صرف جهده الادبي الى نسختنا هذه ، او الى نسخة غيرها او الى ثالثة هي اقدم عهداً منهما

ثم قال الاستاذ :

كان ابن حزم فيلسوفاً ومتألهاً ومؤرخاً وعالماً اخلاقياً وكان له اثره العظيم في تاريخ بلاده ، فترك لنا في كتابه طوق الحمامة مرآة جلية تبدو فيها هذه

(١) بذلنا غاية جهدنا في اصلاح الغامض وتصحيح التصحيف وتركنا ما لم نهتد الى صوابه على علاته ونبهنا اليه

المواهب على اكملها ، وتتضح فيها مشاهد ذكائه الفنية ، وتظهر لنا فيها نواح عديدة من نفسه ، وهو فوق هذا مُرب ، ذو بصيرة وقادة وانتباه عظيم وقصصي ماهر وشاعر لطيف ، وله احياناً ذوق الناقد الادبي البصير ، مدقق في عادات المعاصرين شريف النفس ، مستقيم السيرة ، اما كتابه فجم الافكار ، واضح الاسلوب ، لذيذ ممتع .

ثم عمد الاستاذ الى بيان فصول الكتاب مما يغني عن ايراده الفهرس ، وعرض الاستاذ في بيانه هذا بتخصيص ابن حزم فصلين من كتابه للكلام على قبح المعصية وفضل التعفف ، ثم تكلم عن تغيير ابن حزم لهذه الخطة التي اختطها لنفسه ووجد له العذر في ذلك فقال :

وقد رجح ابن حزم — كما قال — تصوير الحب ، من مبدأ امره الى ان ينتهي بالموت ، وتعقيب ذلك بصفات مباينة له كالتي ذكرها عن الزاني ، فخرج على ترتيبه ولكنه ارانا سير الحب الطبيعي وعوارضه ، وكشف لنا عن هنائه وشقائه

ثم بدأ الاستاذ بدرس للكتاب ، لايعدو ان يكون تلخيصاً له يفيد — كما قال هو — من لا اطلاع له على الاصل العربي ، وليس له كبير نفع لقرائنه فضربنا عنه صفحاً

٣٨٣ — و ٤٥٦

(ترجمة المؤلف)

مأخوذة من نفح الطيب وابن خلكان ومعجم الادباء واخبار الحكماء ودائرة المعارف لوجدي ، والاعلام للأستاذ الزركلي

نسبه

هو ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معد ان ابن صفيان بن يزيد مولى يزيد بن ابي سفيان صخر بن حرب ابن امية بن عبد شمس الاموي

وطنه

اصل آبائه من قرية اقليم الرواية من كورة نبلة من عرب الاندلس واول من دخل الأندلس من اجداده خلف

مولده

وكان مولده بقرطبة آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٣ وكان ابوه ابو عمرو احمد بن سعيد احد العظماء من وزراء المنصور محمد بن عبد الله بن ابي عامر لابنه المظفر بعده

حياته

كان مترجمنا وزيراً لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم لهشام المعتد بالله ثم نبذ هذه الطريقة واقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن واوغل في الاستكثار من علوم الشريعة حتى نال منها ما لم ينله احد قط بالاندلس قبله وقد ناظر الباجي

شارح الموطأ فقال له الباجي انا اعظم منك همة في طلب العلم لانك طلبته وانت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته وانا اسهر بقنديل بائت لسوق ، فقال ابن حزم هذا الكلام عليك لالك لانك انما طلبت العلم وانت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي وانا طلبته في حين ماتعلمه وماذكرته فلم ارج به الا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة فافحمه

مؤلفاته

وله مصنفات كثيرة العدد شرعية المقصد ومعظمها في اصول الفقه وفروعه وقد روى عن ابنه الفضل المكنى ابا رافع ان تآليفه في الفقه والحديث والاصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الادب نحو اربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين الف ورقة قال ياقوت وهذا شيء ماعلمناه لاحد ممن كان في دولة الاسلام قبله الا لابي جعفر محمد بن جرير الطبري فانه اكثر اهل الاسلام تصنيفاً

نكبته

وكان يحمل علمه ويجادل من خالفه فيه على استرسال في طباعه وبذل باسراره واستناد على العهد الذي اخذه الله على العلماء من عباده (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) فنفرت عنه القلوب وابعد عن وطنه وتوغل في البادية سنة ٤٥٦ هـ وهو في ذلك يبث علمه في العامة ويفقههم . ومما نكب فيه حرق مؤلفاته في حياته وتمزيقها علانية من قبل اعدائه وفي ذلك يقول :

وان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي   تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي   وينزل ان انزل ويدفن في قبري
دعوني من احراق رق وكاغد   وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
والا فعودوا في المكاتب بدأة   فكم دون ما تبغون لله من ستر

وله من قصيدة يخاطب بها حساده :

انا الشمس في جو العلوم منيرة　　ولكن عيبي ان مطلعي الغرب
ولو انني من جانب الشرق طالع　　لجد على ماضاع من ذكري النهب

الى ان قال :

هنالك تدري ان للعبد قصة　　وان كساد العلم آفته القرب
وان مكاناً ضاق عني لضيق　　على انه فيح مهامهه سهب
وان رجالا ضيعوني لضيع　　وان زماناً لم انل خصبه جدب

طوق الحمامة

ولم يتعرض لذكر طوق الحمامة من مؤلفاته من ترجموه غير المقري في نفح الطيب حيث قال : قال ابن حزم في طوق الحمامة انه مر يوماً هو وابو عمر ابن عبد البر صاحب الاستيعاب بسكة الحطابين بمدينة اشبلية فلقيهما شاب حسن الوجه فقال ابو محمد هذه صورة حسنة فقال له ابو عمر لم نر الا الوجه فلعل ماسترته الثياب ليس كذلك فقال ابن حزم ارتجالا :

وذي عذل في من سباني حسنه　　يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن اجل وجه لاح لم تر غيره　　ولم تدر كيف الجسم انت عليل
فقلت له أسرفت في اللوم فاتئد　　فعندي رد لو اشاء طويل
ألم تر اني ظاهري وانني　　على ما ارى حتى يقوم دليل

وقد ذكر هذا الكتاب ابن القيم الجوزية في كتابه روضة المحبين في غير ما موضع

اقوال العلماء فيه

قال ابن صاعد وفيه قال ابو العباس العريف كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين

وقال الحافظ ابو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي مارأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين ومارأيت من يقول الشعر على البديهة اسرع منه

وقال بن بشكوال في حقه كان ابو محمد اجمع اهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام واوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والاخبار

وقال الذهبي : وكان اليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسّنة والمذاهب والملل والنحل العربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والحشمة والسودد والرياسة والثروة وكثرة الكتب

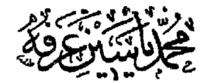
وقال الغزالي رحمه الله تعالى : وجدت في اسماء الله تعالى كتاباً لابي محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه

وقال ابو مروان بن حيان : كان ابو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب ومايتعلق باذيال الادب مع المشاركة في كثير من انواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة وله في ذلك كتب كثيرة

خاتمة

هذا طرف من سيرة هذا الامام الكبير ، والوزير الخطير ، ترى منها صفاء نفسه ، ورقة شعوره ، وعلو همته ، وشدة مراسه ، وثبات اعتقاده ، وقوة يقينه ، وتعلم انه بهذه المواهب النادرة استطاع ان يكون وزيراً بارعاً في السياسة ومؤلفاً بارعاً في الادب ، وفقيهاً اماماً في المذهب ومناضلاً ثابتاً في النضال ، رحمه الله وغفر له .

دمشق : غرة ذي الحجة ١٣٤٩



مقدمة

بقلم الشاعر العربي الكبير الاستاذ البزم

ماوفق البشر وان يوفق الى خدعة اطرف ولااظرف من خدعة تكريم العظماء وتعظيم النابغين والتنويه بذكرهم ودلالة الناس على سر عظمتهم والرفع من اقدارهم الى حيث ينالون بعض مايجب لهم من لهج الناس بهم والحرص على ما أسأروه من آثار قيمة ومتاع باق مستقر

ولهذا ماتراه ونسمع به من اقامة المهارج والاحتفال في عقد المواسم ورفع النصب والتماثيل والحفاوة باخراج الكتب بتراجم الرجال واحوال العبقريين فرادى ومجتمعين

وسواء أكان النابغ فاتحاً قذف بنفسه في لهوات الموت في الذود عن امته او عالماً أذاب مهجته في مهج الحنادس وقضى دهره بالاستنباط والتأليف اومخترعاً وقف عمره على نفع ابناء جلدته او الانسانية جمعاء ، اوشاعراً سكب روحه دموعاً ونفسه حسرات واراق دمه بعبرات بل شعر يبقى بقاء الدهر ويجري جريان الفلك ، فان للامة من تكريمه والصعود بشأنه غاية واحدة لا تعدى الارتفاق بما تركه لها من تراث . ولا فرق عندها ان يكون هذا التراث سيرة او علما ، اختراعاً او شعراً ، او اي شيء غير ذلك مما يعود عليها بالنفع

وقد تنخدع الامة بنفسها فيذهب بها الظن الى ان تحفيها بنابغتها ان هو الا الاريحية المهيمنة وهزة الكرم الغالبة في حين ان من تعنى بشأنه وتشيد بذائع صيته كثيراً مايكون ممن اوسعتهم مقتاً وهجراناً وطوت كشحها عنهم جفاء واعراضاً

فلم ينالوا من برها الا انهم نجوا بعض النجاة من كيدها وعدوانها اذ لم تكن المباشرة قتاهم الا بغمطها حقوقهم والانصراف عنهم والتلهي بمن لايعلق بغبارهم حتى اذا مات احدهم بحسرته حتف أنفه تلك الميتة البائسة الشقية وقيض الله له من نظرائه البائسين او غير البائسين من يجمع اخباره ويدون أحواله ويشير الى القيم من آثاره ليحله التاريخ من صدره مكاناً رحباً ومقعد صدق مكين ثم استمر الفلك في دورته والايام في تقلبها ، واعتورت الامة الاحداث ومست الحاجة الى الارتفاق بما ترك ذلك النابغ هبت الامة او نفر منها تعلي من امره وتحيي ما كاد يندثر من ارثه . وهذا لايكون منها على الغالب الابعد ان تطمئن من انه امسى سراً مكتما بين ثنايا التراب ونهباً مقسماً في احشاء ديدان الارض . اي لاتفعل هذا لشيء من العطف عليه اوالخير تريده له بل لتثير به الهمم وتحرك النفوس وتبعث في بعض القلوب نار التأسي وحرارة حب الاقتداء فلا تعدم من ابنائها على وجه الدهر وكر الاعصار رهطاً يجود بنفسه على التفادي في سبيلها في ناحية من نواحي الحياة

واكبر فائدة تجنى من كتب التراجم أو التاريخ على الجملة هي ان يكون للعظمة سبيل لايعفو رسمها ولاتمحى معالمها فلا يعدم طالب المجد في كل امة من مختلف الشعوب من نظرة في كتب التاريخ تكون له نبراساً فيما يطمح اليه وفرقداً وضاء ينير له طريق ما يقتحمه ويسمو اليه فيأمن العثرة ويتجنب مواطيء الكبوة

ولو كان لكل امة ان تفاخر بمن مضى من رجالها العبقريين ، وافذاذها الغابرين . وانتهى الامر لهذه الامة العربية لكان لها من عظمائها ونوابغها العدد الدثر والحظ الاوفر ولنالت القدح المعلى والمكان الارفع بين امم الارض

وقد جرت السنة ، ونعم السنة ماجرت ، ان تعاد الكرة بالتنبيه على قدر كل عظيم عندما يراد الانتفاع بشيء مما نسجته بنانه ، او قذف به خاطره .

وابن حزم ، ولا كفران ، في الذروة من اوائك الذين يجب ان تستثار بهم همم النابغين وتحرك بذكرهم عبقرية العبقريين . وان من بعض الوفاء للتاريخ والعلم لا لابن حزم ، ان نعرض على الناس من ابن حزم صورة صادقة بقدر ماتنفرج لنا مسافة القول في هذه الكلمة الموجزة نجلو بها من حقيقة امره وكنه ذاته مايغري مطالع كتابه هذا بان يتتبع كل أثر من آثاره ، وما اكثر هذه الآثار وأعرقها بالبقاء لو رفقت بها او أبقت على مجموعها يد الدهر العاتية

لم يستطع احد ممن تكلم عن ابن حزم ان يصعد بنا الى القمة التي تربع ذروتها ، واحتل قنتها كما انهم عجزوا بعض العجز اوكله عن ان يأخذوا بيد قاريء ترجمته الى حيث يجب ان يقف من اعظام الرجل واكباره . وكأنه هو لما رأى بوادر ذلك من اهل دهره في اقليمه لم يشأ ان يحرمنا من نفثات يعرفنا بها بعض ماخشي ان يغمطه بعد الموت ، فمن تلك النفثات هذه القطعة وفيها صورة بينة تشير الى حرقة متأججة ، وحسرة صالية على ماسلبه الدهر من مكانة ، وحرمه من علو . قال :

انا العلق الذي لاعيب فيه سوى بلدي واني غير طاري
تقر لي العراق ومن يليها واهل الارض الاأهل داري
طووا حسداً على ادب وفهم وعلم ما يشق له غباري
فمهما طار في الآفاق ذكري فما سطع الدخان بغير نار

ولولا مامني به من علماء عصره ، وشهرهم الحرب عليه وانتهاء هذه الحرب بتراجعه بعد احراق كتبه وفراقه قرطبة مهد عزه ، ومثوى عظمته ومثار عبقريته ونبوغه ، الى موطن اجداده حيث قضى واولا انه كان جريئاً متمرداً على الاقدمين ، نقاداً وثاباً على غير المخلص من العلماء ، من حاضر اوماض ، صلب العريكة ، صعب المقادة ، صلداً فيما ترجى فيه الهوادة ويطلب اللين يحمل بين فكيه ذلك اللسان العضب الذي قيل ، انه شقيق سيف الحجاج ، لكان

ابن حزم في الاندلس بلا نزاع صخرة واديها وحجر الارض فيها ورجل الدهر في عامة امصارها ، ولقد سامت الحق او واشكه من قال : ان ابن حزم كان يجهل سياسة العلم لانه كان يجادل من خالفه على استرسال في طبـاعه وبذل باسراره ، ولم يكن يلطف صدعه بمـا عنده بتعريض ، ولا يرقه بتدريج بل كان يصك معارضه به صك الجندل ، وبنشق متلقفه انشاق الخردل . فنفر عنه القلوب وألب عليه الخصوم

وناهيك برجل ينشأ في مقاصير العز والثراء ، على عروش الحكم واسرة المجد يتردد من نباله وعلمه ورتبته عند السلطان بين عرش يجله ربه وسرير يمتطي صهوته متقلباً على طنافس النعيم ونمارق السعادة يشمخ بانفه عن الوزارة وينأى بطرفه عن صحبة الملوك فلا يرى متعة لنفسه الا السعي وراء العلم للعلم . فلا يزال يسمو ويرتقي ويقرأ ويكتب ويؤلف على منابر الذهب والفضة ، على ما في الجدة والنعيم من مشغلة عن العلم ، حتى يكون له من التأليف مالا يكون لرجل غيره في العرب قاطبة الا ابن جرير الطبري في المشرق ، ولو انصفه رجال دهره ورزق شيئاً من اللين فيما يصدع به من امره وما يحاوله من اصلاح في الدين والعلم لانضوى تحت لوائه كل حامل محبرة او مثل في علم ودين

رجل هذا شأنه يطلب اليه احد اهل معرفته ان يضع له كتاباً في الحب على بعد مكانه وسمو مكانته عن الـكلام في الحب . فلا يعدم من كرم خيمه ، ورقة طبعه أريحية مضطرمة ، وقريحة مطواعة ، وخاطراً سمحاً وقلماً يرسل من بين شقيه شؤبوباً من جزل القول ورصينه يبتدع ذلك ابتداعاً ، ويرتجله ارتجالا من غير سابق عهد به او أثر يجري عليه ويحتـذي حذوه . واني لاعجب مهما ترفعت عن العجب لهذه النفس ، نفس ابن حزم الذائبة المـكلومة بسهام الصبوة العفة بل الروح المخضلة الندية بمـاء الشغف والشوق تلك الروح الناعمة التي صقلتها رحمة الحب الطاهر وثقفتها نار الـكلف بالجمـال . كيف تحدثك اصدق

الخير عما كان لها وعليها في غابر دهرها وعنفوان شرخها ، وتفضي اليك بان كان لها الحظ الاوفر من احترام ماخطته بنان الخالق من حسن وجمال ، وما وقعته على صفحة الوجود من بديع الصور . ذلك الاحترام الطاهر من درن الريبة كما اراد ان يدلنا عليه في اول كتابه وآخره حيث قال : وسأورد في رسالتي هذه اشعاراً قلتها فيما شاهدته فلا تكر انت ومن رآها علي اني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر واكثر ذلك « فان اخواني يجشمونني القول فيما يعرض لهم على طرائقهم » ثم بعد شيء من وصف شأن الحب يقول « واني لاعرف هذا واتقنه ومع هذا يعلم الله وكفى به عليما اني بريء الساحة ، سليم الاديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجرة » ويداخله الجزع فيرجع فيقول في آخر الكتاب : « وانا اعلم انه سينكر علي بعض المتعصبين تأليفي لمثل هذا ويقول : انه خالف طريقته وتجافى عن وجهته ، وما أحل لاحد ان يظن في غير ماقصدته

الحب قديم والبشر ان لم نقل الحيوان نتيجة من نتائجه وقد عرفه الانسان قبل ان يعرف الكلام فهو رفيق البشر منذ طفولة البشرية والكلام فيه يرجع الى العهد الذي اخذ الانسان يعبر فيه عما يخامره من نوازع نفسه ومضطرب فؤاده وقد كان نصيب الامم من الاجادة في نعته والكلام عليه اكثاراً واقلالا تابعاً لحظها منه وعلاقته من ارواحها ونفوسها ولمقدار مالديها من صفاء القرائح وقوة الطباع على القول والوصف والتخيل

والامة العربية احدى الامم التي كثر حظها من الحب ونصيبها من الكلام في شأنه لرقة طباعها ولين عواطفها وتجافي اكبادها عن الغلظة وقلوبها عن القسوة الا في بعض مواطن الغضب لما يوجبه الذود عن الاعراض والنفوس ، فقد عرف العرب الحب وتغنوا في تعريفه ونعته ووصفه حتى صار الشغل الشاغل

لايجم الكثير ممن وهب قوة القول منهم سواء في ذلك الشاعر والناثر والعالم والفقيه والمحدث والمتصوف والحكيم

وقد اوسعوا له من لغتهم سعة تدل على مكانه من نفوسهم ومكانهم من الفلسفة الفطرية ومقدار مالديهم من الخلابة والاقناع فلو جمع ماخصوه به من الشعر والنثر المبثوث هنا وهناك من كتب الادب والتاريخ والاجتماع لضاقت عنه ضخام الاجلاد مما لم تستطع فلسفة القرن العشرين اي الفلسفة الحديثة بما دعمها من فن وعلم وماتقدمها من فلسفات ان تزيد عليه شيئاً يذكر

وقف العرب من لغتهم للحب طائفة بل طوائف من الالفاظ تغدو وتروح بين اسم له او صفة تلازمه او حال ينتهي اليها هو او من وحل به وتورط في هوته مما لم تتسع للجود به يمين لغة من لغات البشر وقد اتى على معظم ذلك ابو بكر ابن قيم الجوزيه في كتابه روضة المحبين فكان ماجمعه من ذلك خمسين لفظة تعهدها بالشرح وتفقدها بالتحقيق والتدقيق مثل الحب والعشق ، والشوق والهوى ، والصبابة والشغف ، والمقة والوجد ، والكلف واللوعة ، والتتيم والغرام . مما يحمل الوقوف عليه بكل ذي اربة يود ان يعرف مالاجداده العرب من خواطر ملهمة واحوذية خارقة

ومهما قال القائلون في الحب فلن يتجاوزوا في الدنو من اصابة المرمى ، والوقوع على ما يشبه الحق قول ابن سقاء الكوفة احمد بن الحسين المتنبي اذ قال :

لهوى النفوس سريرة لاتعلم عرضاً نظرت وخلت اني اسلم

ولم يقصر عنه في الاحسان من قال :

يقول اناس لو نعت لنا الهوى فوالله ما ادري لهم كيف انعت
فليس لشيء منه حد احده وليس لشيء منه وقت موقت

وما اصدق قول احد العرب واجمله واجمعه واوجزه وقد وشي اليه بان ابنه

يحب فقال : دعوه فانه يلطف وينظف ويظرف . وقال احد الفلاسفة : لم أر حقاً اشبه بباطل ولا باطلا اشبه بحق من العشق هزله جد وجده هزل وأوله لعب وآخره عطب ، وقيل لأبي زهير المديني ما العشق فقال : الجنون والذل ، وهوداء اهل الظرف وما احسن قول الشاعر :

اذا انت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

وقول الآخر :

وما سرني اني خلي من الهوى ولو ان لي مابين شرق ومغرب

ولآخر :

وما احببتها شغفا ولكن رأيت الحب اخلاق الكرام

وسأل المأمون يحي بن اكثم عن العشق ماهو فقال هو سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه وكان ثمامة بن اشرس حاضراً فقال اسكت يا يحي انما عليك ان تجيب في مسألة طلاق او محرم صاد ظبياً او قتل نملة فاما هذه فمسائلنا نحن فقال له المأمون قل ياثمامة فقال : العشق جليس ممتع واليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه لطيفة ومذاهبه غامضة واحكامه جائرة ملك الابدان وارواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها واعطي عنان طاعتها وقود تصرفها توارى عن الابصار مدخله وعمي في القلوب مسلكه فقال له المأمون احسنت والله ياثمامة وامر له بالف دينار

وكلام الناس في الحب على اختلاف أصقاعهم وتنائي اقاليمهم وتباين اجناسهم يكاد يكون متفجراً من معين واحد لان الحب واحد والبشر فيه سواسية وهو « حق لايجوز ان يحرم احد منه » فقد يقذف الشرقي الكلمة في شأن من شؤون الحب فتجيء وفق كلمة قالها الغربي كأن الكلمتين صدرتا عن ضمير واحد ، فما يجري هذا المجرى ويسلك هذا النهج من الاتفاق ان احدى محاكم فرنسا وضعت قانوناً للحب جاء فيه ، ولعله احسن مافيه : «كل عمل يعمله المحب

ينتهي بالتفكر في حبيبه » وهو معنى عرض لكثير عزة قبل اثني عشر قرناً وزيادة في حال وقعت له تراه بيناً في الثالث من هذه الابيات قال :

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم اذا غاله من حادث الدهر غائله
يود بان يمسي سقيما لعلهـا اذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويرتاح للمعروف في طلب العلى لتحمد يوماً عند عز شمائله

وقد اراد الديب الى معنى البيت الاخير السيد توفيق البكري صاحب كتاب صهاريج اللؤلؤ فضل الطريق واخفق في ستر الاختلاس فانتزعه انتزاعاً شائناً مع بعض الاحسان بزيادة المعنى فقال :

واطلب المجد والمكرمات لتحسن لي شيمة عندك

وقبيح بنا الا نشاطر القاريء لذة القصة التي دعت كثيراً لارتجال الابيات الثلاثة وهي من غرائب الاتفاق وطرائف قصص العرب وذلك انه كان لكثير غلام يتجر على العرب فاعطى النساء الى اجل فلما اقتضى ماله منهن وفيهن عزة ماطلته فقال لها يوماً وقد حضرت في نساء ، اما آن ان تفي بما عندك فقالت كرامة لم يبق الا الوفاء فقال صدق مولاي حيث يقول :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

وهو بيت مشهور من قصيدة لكثير بحبيبته عزة هذه فقلن له أتدري من غريمتك فقال لا فقلن هي والله عزة فقال اشهدكن على انها في حل مما عندها ومضي واخبر كثيراً بالحكاية فقال : وانت حر وما عندك لك وكان ماوهبه اياه الف دينار وانشد الابيات المتقدمة وفيها من الصراحة مايفر منه اكثر الناس وهو ان ما اتاه بفعاته هذا وماحرص ويحرص عليه من استجماع انواع المكارم وضروب المحامد ان هو الاليتهي اليها ويقرع سمعها

وطوق الحمامة ان صح انه اول كتاب اخرج للناس في الحب فهو على كثرة ما الف بعده في موضوعه لايزال ينفرد بمحاسن ويعتصم بخصائص تقضي

له بالمكانة العليا بين هذه الكتب فمن ذلك المامه ببعض مايتفاهم به المتحابون وتعريجه على الخوض في معرفة سياسة الحب وما يلزم الوحل فيه من حذر واحتراس وعطفه على التماس العلة في ان النساء اكثر تعرضاً للحب واشد اشتغالا به من الرجال لكثرة فراغ النساء وزيادة مشاغل الرجال ، ولست بواجد عند احد ممن الف في الحب مثل قول ابن حزم في باب الهجر عن هيبة المحبوب وما تبلغه الذلة من العاشق امام المعشوق كما انه قد نزه كتابه عن كثير مما شان به المؤلفون في الحب كتبهم من اوهام واباطيل فانك لاترى في طوق الحمامة شيئاً مما شحن به صاحب تزيين الاسواق كتابه من الخرافات السمجة والاوهام المستبشعة وما تظرف به مجان الشعراء من ادعاء عشق الحيوان ووضعهم الشعر عن لسان العشاق من الحمير وغيرها مثل الزاغ !! فهو يعتذر في اول الكتاب عن ترك ماهو اولى من هذا بالتدوين فيقول : « ودعني من اخبار الاعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت عنهم الاخبار وما مذهبي ان انضي مطية سواي ولا اتحلى بحلي مستعار »

وان في هذا الاسم طوق الحمامة من الخيال والشعر والخلابة والحسن والنعومة والطراوة مايشعرك بان الاندلسيين قد بلغوا من التأنق والتنطع في انتقاء الالفاظ واستخدامها والتصرف بها في وجوه التسمية حداً كادوا ان يبروا به على من تحدوهم وجروا على آثارهم من البغاددة والمشارقه وسيمر بك مما يدل على حذق الاندلسيين هذا الشيء الكثير امثال : صبح ، وغزلان وخلوة ، ودعجاء ، وطروب ، وواحد ، اسماء لجوار وعجيب اسم لغلام

ومما لاريب فيه ان عمل ابن حزم في تأليفه هذا انما هو عمل القلب الجريح للكبد المصدوعة والروح المتألمة للارواح البائسة تجد فيه النفوس من المتعة والسلوة ما لايجده المتيم المهجور في النديم المساعد المخلص على الراح . وجميل بنا وقد دلنا على بعض محاسن طوق الحمامة ان نتناولها بشيء من النقد وان كان انما

كتبها لصديق وانه قد اخذ على نفسه ان لايبحث فيها الا بما علمه وشاهده وحل عنده محل اليقين من نفسه واهل عصره

لم يحسن ابن حزم باقتصاره على شعره في طوق الحمامة فقد قيد نفسه من هذا بقيد ضيق عليه المضطرب وثقل من خطاه وقصر من مدى جريه وكف من جولانه في طيات الموضوع وكأن ابن حزم لم يكن يريد ان يحشر مع الشعراء او يطلع على الناس بديوان شعر اكتفاء بمكانته العلمية وزعامته الدينية وصعب عليه ان تعبث يد الضياع بعامة شعره فآثر ان يجعل من طوق الحمامة مدخراً اميناً وحرزاً مكيناً على هذا المقدار من شعره

ومهما اخطأ التوفيق ابن حزم بعمله هذا فقد افادنا ما كان يخامره من الصبوة الى نظم الشعر والنزعة الى صناعته وانه كان يغالب نفسه ويخالبها في صرفها عن الشعر وانه لو لم يكن ذلك الفقيه الكبير والمحدث العظيم رجل المنطق والكلام وفحل الجدل والمناظرة والبالغ من الفلسفة درجة التجويد لكان للاندلس منه شاعر لايدع الى جانب اسمه ذكراً لشاعر في قطره فضلًا عن ان اختصاره على شعره قد حال بينه وبين شيء من الاحسان واقام حاجزاً دون بلوغه الغاية المرجوة من امتاع القاريء لانه كثيراً مايشرع بايراد خبر فاذا بلغ مكان اللذة منه بتره فجأة وحملك على ان تقرأ قطعة شعرية له تشبه ذلك الخبر اوتجري مجراه ولا تحوي الا شيئاً قليلًا من طرافته ولذته . وخير مايقال في شعر ابن حزم انه صوب قريحة قطن في جوانبها من الفلسفة والفقه والكلام مايفسد على اكثر الشعراء شاعريتهم ولهذا تراه ينحدر في شعره ويسف بقدر مايترك من قياده للفلسفة والكلام يذهبان به ويجيئان في اغراض تلك مرة ومآرب هذه اخرى ولو نجا من ذلك لجاء من شعره مايجري مع الطبع ويتغلغل في اجزاء النفس ويشتد شبهه بكلام العرب ولمثل من صبابة اهل البادية الممزوجة برقة الحضر وخنوثته ومايتبع هذا من ذل وضرع واستكانة وتهافت على عتبات الخضوع

لسلطان الهوى وجبروت الحب ما لايقل عن شعر كثير وجميل وابن ابي ربيعة وذي الرمة

ولم ينج بن حزم من الوقوع في احابيل الفاسفة في اول كتابه فقد اوشك ان يرتبك بعض الارتباك حين قسم اعراض الحب ثم فطن الى ان الحب انما هو عرض فجعل ذلك من مجاز اللغة واقامة الصفة مقام الموصوف وهو قول مستمد من قول القدماء من ان العرض قد يرتفع الى مقام الجوهر فيكون له من الاعراض ماللجوهر وهو قول يتردد بين السفسطة والخلابة وقد نظمه احد شعراء العرب فقال :

فسد القياس فللغرام قضية ليست على نهج الحجى تنقاد

منها بقاء الشوق وهو بزعمهم عرض وتفنى دونه الاجساد

وخرافة اخرى عاقت ابن حزم في طوق الحمامة فلم ير لنفسه متندحاً عنها وهي ذهاب فلاسفة اليونان الى ان الارواح كان لها قبل اتصالها بالاجسام وهبوطها من عالمها الاول إلفة وتمازج وحب فلما باشرت هياكلها من الاجساد كان لها من الحنين ونزوع بعضها الى بعض بقدر ماوجدته من شفافة الاجساد ورقتها ولطافتها ومرونتها وقد علق ابن حزم بشرك هذا الوهم ولكنه اجاد في صوغه وتعليله وموه له زخرفاً براقاً مشى به الى ما يزدلف من الحقيقة كما اجاد « معاصره »ابو علي بن سينا في عينيته بالروح وهي قصيدة مشهورة شرحها كثيرون ومطلعها :

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وقد الح الشعراء من المتصوفة كابن الفارض وغيره يقلبون هذه الفكرة ويوردونها على وجوه مختلفة يتغنون بها حسب مالديهم من قوة الشعر ، ولقد اجاد وظرف وحسن الخبزارزي الشاعر في حوك هذه الخرافة فقال :

ولكن ارواح المحبين تلتقي　　اذا كانت الاجساد عنهن نوّما
واحسب روحينا من الاصل واحد　　ولكنه ما بيننا قد تقسما
ولو لم يكن هذا كهذا ماتألمت　　له مهجتي في الغيب لما تألما

ولابن الفارض نظم في هذا المعنى :

بيني وبينك في المحبة نسبة　　مطوية من قبل هذا العالم
نحن اللذان تعارفت ارواحنا　　من قبل خلق الله طينة آدم

وقد يكون ابن حزم اول من اطل على الناس بمؤلف في الحب الا اذا كان ابن سينا في الشرق قد تقدمه بوضع رسالة في العشق لان وفاة ابن حزم تأخرت عن وفاة ابن سينا بثمان وعشرين سنة كما ان ابن سينا تقدم ميلاده لدة ابن حزم باربعة عشر عاماً ولا اعتقد ان واحداً منهما وقع اليه ما كتبه الآخر في الحب يدل على ذلك اختلاف المنحى وتباين الجهة في مقصد التأليف

على ان رسالة الرئيس ابن سينا لايصح في حال من الاحوال ان تسمى تأليفاً وان كان سبب كتابتها الاقتراح كما اقترحت رسالة ابن حزم وان هي الا فكرة فلسفية عرضت له كما عرضت لمن تقدمه وتأخر عنه من فلاسفة اليونان والاسلام والصوفيين فتكلموا بالفلسفة باسم الحب واستخدموه لاغراضها كما استخدم اخوانهم النحاة المنطق لاغراضهم (لا لاغراض النحو) فافسدوا النحو على العرب كما افسد هؤلاء ابحاث الحب فانك لترى ابن سينا على جلالة قدره وعلمه يتكلف ويجشم نفسه محاولة اثبات ان العوالم الثلاثة الجماد والنبات والحيوان بانواعه خاضعة لقانون الحب مذعنة لناموس تجاذبه فيبلغ في معالجة ذلك وتتبع علله والتماس اسبابه حداً يكاد يشرف منه على السخف وينتهي الى مايشبه الحمق (ان صح ان يكون سؤ التقليد سخفاً وحمقاً) ولست بمحاول بهذا ان اضع من شأن ابي علي وشأنه في العلم والفلسفة ماهو مشهور ولكنها الجهرة بالحق والصدعة بامره واجبة يقود اليها الاخلاص كما قاد ابن سينا وابن حزم وكلاهما

مأخوذ بعاطفة الدين يخشى ويتذمم ويؤثر ان لايؤثر عنه مايخدش سمعته او يدفع بعض المتعصبين الى النيل من دينه ، فكما عد ابن سينا العشق من وجهته الحيوانية نقيصة وعاراً فقد نقل نقل متثبت واثق ان العقلاء الاكياس يعدون النظر الى الصورة الجميلة فتوة وتظرفاً واستنتج من هذا ونظائره ان الحب ليس حتما فيه ان يكون حيوانياً وينتهي به البحث الى ان الحب مهما تخلله من قرب ولمس ان لم تكن الغاية منه الفحش تظرف وفتوة ورجولة ومرؤة وانه حينما تكون الصورة الجميلة الحسنة فثمة الاعتدال في التركيب مما يفيد طيباً في الشمائل وعذوبة في السجايا ويجعل من هذا الحديث القائل : اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه ، وفي هذا من الاخلاص للعلم مالم يوفق اليه بل ناصبه وعاداه بعض من الف في الحب وغيرهم ممن اخذ على عاتقه من طريق التحشية والشرح ان ينال من دين الناس نيل متسرع لايدري من امور الدين الا ظواهر براقة محكوكة الجبهة بالثوم فأساء الى الناس والدين وزعم ان بين من يتوهم بهم اتيان الموبقات بين سمع الناس وبصرهم من لايفهم من الدين بقدر ما يفهم ويؤذنهم ويؤذيهم بقوله ان للمتقين مفازاً كأنهم يحولون بينه وبين مفازه او كأنه احرز صكا بذلك المفاز ذاهلاً عن ان بين هؤلاء من يحمل قلباً يضطرب به من معرفة ذات الله وجوهر الدين مالامطمح له ببعضه وان نقاء السرائر وطيب القلوب ليس بالتظاهر والدعوى

وما اشبه كلمة ابن سينا هذه بقول ابن حزم في ماهية الحب وهي : الحب اعزك الله اوله هزل وآخره جد دقت معانيه لجلالتها عن ان توصف فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة اذ القلوب بيد الله عز وجل

كان ابن حزم رحمه الله تنبأ بما سينشب بين العلماء من خلاف في اعتبار الحب اختيارياً عند قوم واضطرارياً عند آخرين وان الفرقة الاولى ستستنتج

من كونه اختيارياً مايصح ان يكون سبباً لتحريمه فيوقعون النـاس من الدين في حرج وهم وان اخلصوا في هذا الدين فانهم لم يخلصوا للفن الذي يكتبون فيه على ان الاخلاص في العلم فطرة لازمة لحامليه والناهضين باعبائه فلا تظن ان احداً ضمت جوانحه على شيء من العلم او اشتملت ترائبه على قليل او كثير مما يسمى فناً الا وفي قلبه جذوة تتوقد وتهيب به ممسكة بمقادته الى الاخلاص طوعاً او كرهاً مهما اعتورت طريقه العثرات وانتصب امامه من عقاب الا من كان دخيلا في العلم دعياً بين ابنائه

وما دام امد القول في شأن ابن حزم يجب ان يكون قصيراً وحبله مقتضباً عن التطويل فلا بأس ان نخرج الى كلمة ختام يحتمها علينا الايجاز ويدعو اليها المقام ويقضي بها الرفق بالناشر وهو انما طبع كتاباً لايعوزه اكثر من تعريفه الى قرائه مع شيء من ذكر قيمة مؤلفه وان كان الواجب يقضي علي بان امد في نفس القول كيداً به ونكاية له وطلباً لارهاقه بزيادة نفقة الطبع كما ارهقني وحملني على الكتابة اشد ما كنت مفتقراً الى الراحة وترك التفكير بيد اني رجعت الى نفسي وفطنت الى ان لاخطر ولاضرر عليه من هذا مادام القراء هم القائمون بهذه الزيادة في الانفاق راضين او مكرهين ، وهم المستحقون للعقوبة لانهم اصل البلاء ولولاهم لاستراح كثير من القرائح والاقلام في هـذا العصر . وكفى القراء عقوبة ان لاسبيل لهم الى هـذا الكتاب الممتع الا عن طريق هذه المقدمة فهي قنطرة لاينجو من تكلف عبورها الا من يحسن الطفرة ويجيـد النزوة ، وما اخالهم فاعلين وقد دفعوا ثمنها في جملة ثمن الـكتاب .

« محمد البزم »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ﴾

قال ابو محمد عفا الله عنه افضل ما ابتديء به حمد الله عز وجل بما هو اهله ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة وعلى جميع انبيائه عامة . وبعد عصمنا الله واياك من الحيرة ولاحملنا ما لاطاقة لنا به وقيض لنا من جميل عونه دليلاً هادياً الى طاعته ووهبنا من توفيقه ادباً صارفاً عن معاصيه ولا وكلنا الى ضعف عزائمنا وخور قوانا ووهاء بنيتنا وتلدد(١) ارائنا وسوء اختيارنا وقلة تمييزنا وفساد اهوآئنا فان كتابك وردني من مدينة المرية الى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك مايسرني وحمدت الله عز وجل عليه واستدمته لك واستزدته فيك ثم لم البث ان اطلع على شخصك وقصدتني بنفسك على بعد الشقة وتناءي الديار وشحط المزار وطول المسافة وغول الطريق وفي دون هـذا ما سلى المشتاق ونسى الذاكر الا من تمسك بحبل الوفاء مثلك ورعى سالف الاذمة (٢) ووكيد المودات وحق النشأة ومحبة الصبى وكانت مودته لله تعالى ولقد اثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون وكانت مغازيك في كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ثم كشفت الي باقبالك غرضك واطلعتني على مذهبك سجية لم تزل علينا من مشاركتك لي في حلوك ومرك وسرك وجهرك يحدوك الود الصحيح الذي انا لك على اضعافه لاابتغي جزآء غير مقابلته بمثله وفي ذلك اقول مخاطباً لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن امير المؤمنين الناصر رحمه الله في كلمة لي طويلة وكان لي صديقا

اودك وداً ليس فيـه غضاضة ۞ وبعض مودات الرجـال سراب

---

(١) لدده خيره (٢) الذمام الحق : الحرمه : والجمع اذمة

واحمضتك النصح الصريح وفي الحشى ... لودك نقش ظاهر وكتاب
فلو كان في روحي هواك اقتلعته ... ومزق بالكفين عنه اهاب
وما لي غير الود منك ارادة ... ولا في سواه لي اليك خطاب
اذا حزته فالارض جمعاء والورى ... هباء وسكان البلاد ذباب

وكلفتني اعزك الله ان اصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه واسبابه واعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزيداً ولا مفنناً (١) لكن مورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما اذكره فبادرت (٢) الى مرغوبك ولولا الايجاب لك لما تكلفته فهذا من الفقر والاولى بنا مع قصر اعمارنا الا نصرفها الا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غداً. وان كان القاضي حمام بن احمد حدثني عن يحيى بن مالك عن عائذ باسناد يرفعه الى ابي الدرداء انه قال اجموا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق. ومن بعض اقوال الصالحين من السلف المرضي: من لم يحسن يتفتى لم يحسن يتقوى. وفي بعض الاثر: اريحوا النفوس فانها تصدأ كما يصدأ الحديد. والذي كلفتني فلا بد فيه من ذكر ماشاهدته حضرتي وادركته عنايتي وحدثني به الثقات من اهل زماني فاغتفر لي الكناية عن الاسماء فهي اما عورة لا نستجيز كشفها واما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلا وبحسبي ان أسمي من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره اما لاشتهار لا يغني عنه الطي وترك التبيين واما ارضى من المخبر عنه بظهور خبره وقلة انكار منه لنقاله وسأورد في رسالتي هذه اشعاراً قلتها فيما شاهدته فلا تنكر انت ومن رآها علي اني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر واكثر ذلك فان اخواني يجشمونني القول فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم وكفاني اني ذاكر لك ماعرض لي مما يشا كل ما نحوت نحوه

(١) فنن الشيء خلطه: رأيه لونه ولم يثبت على رأي واحد (٢) في الاصل فبدرت

وناسبه الي والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك والاقتصار على مارأيت اوصح عندي بنقل الثقات ودعني من اخبار الاعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الاخبار عنهم وما مذهبي ان انضي مطية سواي ولاأتحلى بحلي مستعار والله المستغفر والمستعان لارب غيره

(باب) وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين باباً منها في اصول الحب عشرة فأولها هذا الباب في علامات الحب ثم ﴿باب فيه ذكر من احب في النوم﴾ ثم ﴿باب فيه ذكر من احب بالوصف﴾ ثم ﴿باب فيه ذكر من احب من نظرة واحدة﴾ ثم ﴿باب فيه ذكر من لاتصح محبته الامع المطاولة﴾ ثم ﴿باب التعريض بالقول﴾ ثم ﴿باب الاشارة بالعين﴾ ثم ﴿باب المراسلة﴾ ثم ﴿باب السفير﴾ ومنها في اعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً وان كان الحب عرضاً والعرض لايحتمل الاعراض وصفة والصفة لاتوصف فهذا على مجاز اللغة في اقامة الصفة مقام الموصوف وعلى معنى قولنا وجودنا عرضاً اقل في الحقيقة من عرض غيره واكثر واحسن واقبح في ادراكنا لها علمنا انها متباينة في الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة اذ لا تقع فيها الكمية ولاالتجزي لانها لاتشغل مكاناً وهي ﴿باب الصديق المساعد﴾ ثم ﴿باب الوصل﴾ ثم ﴿باب طي السر﴾ ثم ﴿باب الكشف والاذاعة﴾ ثم ﴿باب الطاعة﴾ ثم ﴿باب المخالفة﴾ ثم ﴿باب من احب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها﴾ ثم ﴿باب القنوع﴾ ثم ﴿باب الوفاء﴾ ثم ﴿باب الغدر﴾ ثم ﴿باب الضنى﴾ ثم ﴿باب الموت﴾ ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة ابواب وهي ﴿باب العاذل﴾ ثم ﴿باب الرقيب﴾ ثم ﴿باب الواشي﴾ ثم ﴿باب الهجر﴾ ثم ﴿باب البين﴾ ثم ﴿باب السلو﴾ من هذه الابواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الابواب المتقدمة الذكر وهو ﴿باب العاذل وضده﴾ ﴿باب الصديق المساعد﴾ ﴿باب الهجر وضده﴾ ﴿باب الوصل﴾ ومنها اربعة ابواب لاضدلها من معاني الحب وهي ﴿باب الرقيب﴾ و ﴿باب الواشي﴾ ولا ضد لهما الا ارتفاعهما وحقيقة الضد ما اذا وقع ارتفع الاول وان كان المتكلمون قد اختلفوا في ذلك

ولولا خوفنا اطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه ﴿ وباب البين وضده تصاقب الديار ﴾ وليس التصاقب من معاني الحب التي تكلم فيها ﴿ وباب السلو وضده الحب بعينه ﴾ اذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة وهما ﴿ باب الكلام في قبح المعصية ﴾ و ﴿ باب في فضل التعفف ﴾ ليكون خاتمة ايرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فذلك مفترض على كل مؤمن لكننا خالفنا في نسق بعض هذه الابواب هذه الرتبة المقسمة في درج هذا الباب الذي هو اول ابواب الرسالة فجعلناها على مباديها الى منتهاها واستحقاقها في التقدم والدرجات والوجود ومن اول مراتبها الى آخرها وجعلنا الضد الى جنب ضده فاختلف في المساق في ابواب يسيرة والله المستعان وهيأتها في الايراد اولها هذا الباب الذي نحن فيه وفيه صدر الرسالة وتقسم الابواب والكلام في ماهية الحب ثم ﴿ باب علامات الحب ﴾ ثم ﴿ باب من احب بالوصف ﴾ ثم ﴿ باب من احب من نظرة واحدة ﴾ ثم ﴿ باب من لا يحب الا مع المطاولة ﴾ ثم ﴿ باب من احب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ﴾ ثم ﴿ باب التعريض بالقول ﴾ ثم ﴿ باب الاشارة بالعين ﴾ ثم ﴿ باب المراسلة ﴾ ثم ﴿ باب السفير ﴾ ثم ﴿ باب طي السر ﴾ ثم ﴿ باب اذاعته ﴾ ثم ﴿ باب الطاعة ﴾ ثم ﴿ باب المخالفة ﴾ ثم ﴿ باب العاذل ﴾ ثم ﴿ باب المساعد من الاخوان ﴾ ثم ﴿ باب الرقيب ﴾ ثم ﴿ باب الواشي ﴾ ثم ﴿ باب الوصل ﴾ ثم ﴿ باب الهجر ﴾ ثم ﴿ باب الوفاء ﴾ ثم ﴿ باب الغدر ﴾ ثم ﴿ باب البين ﴾ ثم ﴿ باب القنوع ﴾ ثم ﴿ باب الضنى ﴾ ثم ﴿ باب السلو ﴾ ثم ﴿ باب الموت ﴾ ثم ﴿ باب قبح المعصية ﴾ ثم ﴿ باب فضل التعفف ﴾ .

﴿ الكلام في ماهية الحب ﴾

الحب اعزك الله اوله هزل وآخره جد دقت معانيه لجلالتها عن ان توصف فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة اذ القلوب بيد الله عز وجل وقد احب من الخلفاء المهديين والائمة الراشدين كثير

منهم باندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء والحكم بن هشام وعبد الرحمن ابن الحكم وشغفه بطروب ام عبد الله ابنه اشهر من الشمس ومحمد بن عبد الرحمن وامره مع غزلان ام بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم والحكم المستنصر وافتتانه بصبح ام هشام المؤيد بالله رضي الله عنه وعن جميعهم وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها ومثل هذا كثير ولولا ان حقوقهم على المسلمين واجبة وانما يجب ان نذكر من اخبارهم ما فيه الحزم واحياء الدين وانما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الاخبار به عنهم لاوردت من اخبارهم في هذا الشأن غير قليل واما كبار رجالهم ودعائم دولتهم فاكثر من ان يحصوا واحدث ذلك ماشاهدناه بالامس من كلف المظفر بن عبد الملك ابن ابي عامر بواحد بنت رجل من الجبانين حتى حمله حبها ان يتزوجها وهي التي خلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مسلمة ثم تزوجها بعد قتله رجل من رؤساء البربر ومما يشبه هذا ان ابا العيش بن ميمون القرشي الحسيني اخبرني ان نزار بن معد صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن نزار الذي ولي الملك بعده وادعى الالاهية الا بعد مدة من مولده مساعدة لجارية كان يحبها حباً شديداً هذا ولم يكن له ذكر ولا من يرث ملكه ويحي ذكره سواه (ومن الصالحين والفقهاء) في الدهور الماضية والازمان القديمة من قد استغني باشعارهم عن ذكرهم وقد ورد من خبر عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وشعره ما فيه الكفاية وهو احد فقهاء المدينة السبعة وقد جاء من فتيا بن عباس رضي الله عنه ما لا يحتاج معه الى غيره حين يقول هذا قتيل الهوى لاعقل ولاقود وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا واطالوا والذي اذهب اليه انه اتصال بين اجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في اصل عنصرها الرفيع لا على ماحكاه محمد ابن داود رحمه الله عن بعض اهل الفلسفة الارواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها وقد علمنا ان سر

التمازج والتباين في المخلوقات انما هو الاتصال والانفصال والشكل دأبا يستدعي شكله والمثل الى مثله ساكن وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد والتنافر في الاضداد والموافقة في الانداد والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل وسنخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار كل ذلك معلوم بالحضرة في احوال تصرف الانسان فيسكن اليها والله عز وجل يقول (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها) فجعل علة السكون انها منه ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب الا يستحسن الانقص من الصورة ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الادنى ويعلم فضل غيره ولايجد محيداً لقلبه عنه ولو كان للموافقة في الاخلاق لما احب المرء من لايساعده ولا يوافقه فعلمنا انه شيء في ذات النفس وربما كانت المحبة لسبب من الاسباب وتلك تفنى بفناء سببها فمن ودك لامر ولى مع انقضائه وفي ذلك اقول :

ودادي لك الباقي على حسب كونه ... تناهى فلم ينقص بشيء ولم يزد
وليست له غير الارادة علة ... ولا سبب حاشاه يعلمه احد
اذا ما وجدنا الشيء علة نفسه ... فذاك وجود ليس يفنى على الابد
واما وجدناه لشيء خلافه ... باعدامه في عدمنا ما له وحد

ومما يؤكد هذا القول اننا علمنا ان المحبة ضروب فافضلها محبة المتحابين في الله عز وجل اما لاجتهاد في العمل واما لاتفاق في اصل النحلة والمذاهب واما لفضل علم يمنحه الانسان ومحبة القرابة ومحبة الالفة والاشتراك في المطالب ومحبة التصاحب والمعرفة ومحبة لبر يضعها المرء عند اخيه ومحبة لطمع في جاه المحبوب ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ومحبة لبلوغ اللذة وقضاء الوطر ومحبة العشق التي لاعلة لها الا ماذكرنا من اتصال النفوس وكل هذه الأجناس فمنقضية مع انقضاء عللها وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها متأكدة

بدنوها فاترة ببعدها حاشى محبة العشق الصحيح المكن من النفس فهي التي لافناء لها الا بالموت وانك لتجد الانسان السالي بزعمه وذا السن المتناهية اذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين ولا يعرض في شيء من هذه الاجناس المذكورة من شغل البال والخبل والوسواس وتبدل الغرائز المركبة واستحالة السجايا المطبوعة والتحول والزفير وسائر دلائل الشجا مايعرض في العشق فصح بذلك انه استحسان روحاني وامتزاج نفساني فان قال قائل لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية اذ الجزءان مشتركان في الاتصال وحظهما واحد فالجواب عن ذلك ان نقول هذه لعمري معارضة صحيحة ولكن نفس الذي لايحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الاعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية فلم تحس بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة طالبة له قاصدة اليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد قوة جوهر المغنطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها ولا من تصفيتها ان تقصد الى الحديد على انه من شكلها وعنصرها كما ان قوة الحديد لشدتها قصدت الى شكلها وانجذبت نحوه اذ الحركة ابداً انما تكون من الاقوى وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس تطلب مايشبهها وتنقطع اليه وتنهض نحوه بالطبع والضرورة بالاختيار والتعمد وانت متي امسكت الحديد بيدك لم ينجذب اذ لم يبلغ من قوته ايضاً مغالبة الممسك له مما هو اقوى منه ومتى كثرت اجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض واكتفت باشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها فتى عظم جرم المغنطيس ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد عاد الى طبعها المعهود وكالنار في الحجر لايبرز على قوة النار في الاتصال والاستدعاء لاجزائها حيث كانت الا بعد القدح ومجاورة الجرمين بضغطهما

واصطكاكهما والا فهي كامنة في حجرها لاتبدو ولا تظهر ومن الدليل على هذا ايضاً انك لاتجد اثنين يتحابان الا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية لابد من هذا وان قل وكلما كثرت الاشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة فانظر هذا تراه عياناً وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده (الارواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) وقول مروي عن احد الصالحين (ارواح المؤمنين تتعارف) ولهذا ما اغتم بقراط حين وصف له رجل من اهل النقصان يحبه فقيل له في ذلك فقال ما احبني الا وقد وافقته في بعض اخلاقه وذكر افلاطون ان بعض الملوك سجنه ظلماً فلم يزل يحتج عن نفسه حتي اظهر براءته وعلم الملك انه له ظالم فقال له وزيره الدي كان يتولى ايصال كلامه اليه ايها الملك قد استبان لك انه بريء فمالك وله فقال الملك لعمري مالي اليه سبيل غير اني اجد لنفسي استثقالا لا ادري ماهو فأدى ذلك الى افلاطون قال فاحتجت ان افتش في نفسي واخلاقي شيئاً اقابل به نفسه واخلاقه مما يشبهها فنظرت في اخلاقه فاذا هو محب للعدل كاره للظلم فميزت هذا الطبع في فما هو الا ان حركت هذه الموافقة وقابلت نفسه بهذا الطبع الذي بنفسه فأمر باطلاقي وقال اوزيره قد انحل كل ما اجد في نفسي له .

واما العلة التي توقع الحب ابداً في اكثر الامر على الصورة الحسنة الظاهر ان النفس حسنة تولع بكل شيء حسن وتميل الى التصاوير المتقنة فهي اذا رأت بعضها تثبتت فيه فان ميزت وراءها شيئاً من اشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية وان لم تميز وراءها شيئاً من اشكالها لم يتجاوز احبابها الصورة وذلك هو الشهوة وان للصور لتوصيلا عجيباً بين اجزاء النفوس النائية وقرأت في السفر الاول من التوراة ان النبي يعقوب عليه السلام ايام رعيه غنما لابن خاله مهرا لابنته شارطه على المشاركة في انسالها فكل بهيم ليعقوب وكل اغر للابان فكان يعقوب عليه السلام يعمد الى قضبان الشجر يسلخ نصفاً ويترك نصفاً

بحاله ثم يلقي الجميع في الماء الذي ترده الغنم ويتعمد ارسال الطروقة في ذلك الوقت فلا تلد الا نصفين نصفاً بهماً ونصفاً غراً وذكر عن بعض القافة انه اتى بابن اسود لأبيضين فنظر الى اعلامه فرآه لهما غير شك فرغب ان يوقف على الموضع الذي اجتمعا عليه فأدخل البيت الذي كان فيه مضجعهما فرأى فيما يوازي نظر المرأة صورة اسود في الحائط فقال لأبيه من قبل هذه الصورة اتيت في ابنك وكثيراً مايصرف شعراء اهل الكلام هذا المعنى في اشعارهم فيخاطبون المرئي في الظاهر خطاب المعقول الباطن وهو المستفيض في شعر النظام ابراهيم بن سيار وغيره من المتكلمين وفي ذلك اقول شعراً منه :

ما علة النصر في الاعداء تعرفها وعلة الفر منهم ان يفرونا
الا نزاع نفوس الناس قاطبة اليك يالؤلؤاً في الناس مكنوناً
من كنت قدامه لاينثني ابداً فهم الى نورك الصعاد يعشونا
ومن تكن خلفه فالنفس تصرفه اليك طوعاً فهم دأباً يكرونا

وفي ذلك اقول :

امن عالم الاملاك انت ام انسي ابن لي فقد ازرى بتمييزي العي
ارى هيئة انسية غير انه اذا اعمل التفكير فالجرم علوى
تبارك من سوى مذاهب خلقه على انك النور الانيق الطبيعي
ولاشك عندي انك الروح ساقه الينا مثال في النفوس اتصالي
عدمنا دليلا في حدوثك شاهداً نقيس عليه غير انك مرئي
ولولاوقوع العين في الكون لم نقل سوى انك العقل الرفيع الحقيقي

وكان بعض اصحابنا يسمى قصيدة لي الادراك المتوهم منها

ترى كل ضد به قائماً فكيف تحد اختلاف المعاني
فيآيها الجسم لا ذا جهات ويا عرضاً ثابتاً غير فان
نقضت علينا وجوه الكلام بما هو مذ لحت بالمستبان

وهذا بعينه موجود في البغضة ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ولا علة وبثتقل بعضهما بعضا بلا سبب والحب اعزك الله داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ومقام مستلذ وعلة مشتهاة لايود سليمها البرء ولا يتمنى عليلها الافاقة يزين للمرء ما كان يأنف منه ويسهل عليه ما كان يصعب عنده حتى يحيل الطبائع المركبة والجبلة المخلوقة وسيأتي كل ذلك ملخصاً في بابه ان شاء الله (خبر) ولقد علمت فتى من بعض معارفي وقد وحل في الحب وتورط في حبائله واضر به الوجد وانضجه الدنف وما كانت نفسه تطيب بالدعاء الى الله عز وجل في كشف ما به ولا ينطلق به لسانه وما كان دعاؤه الا بالوصل والتمكن ممن يحب على عظيم بلائه وطويل همه فما الظن بسقيم ولا يريد فقد سقمه ولقد جالسته يوماً فرأيت من اكبابه وسؤ حاله واطراقه ما ساءني فقلت له في بعض قولي فرج الله عنك فلقد رأيت اثر الكراهية في وجهه وفي مثله اقول من كلمة طويلة :

واستلذ بلائي فيك بأملي   واستعنك مدى الايام انصرف

ان قيل لي تتسلى عن مودته   فما جوابي الا اللام والالف

(خبر) وهذه الصفات مخالفة لما اخبرني به عن نفسه ابو بكر محمد ابن قاسم ابن محمد القرشي المعروف بالشلشي من ولد الامام هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية انه لم يحب احداً قط ولا اسف على الف بان منه ولا تجاوز حد الصحبة والالفة الى حد الحب والعشق منذ خلق .

﴿ باب علامات الحب ﴾

وللحب علامات يقفوها الفطن ويهتدي اليها الذكي فأولها ادمان النظر والعين باب النفس الشارع وهي المنقبة عن سرائرها والمعبرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها فترى الناظر لا يطرف يتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس وفي ذلك اقول شعراً منه

فليس لعيني عند غيرك موقف   كأنك مايحكون من حجر البهت
اصرفها حيث انصرفت وكيف ما   تقلبت كالمنعوت في النحو والنعت

ومنها الاقبال بالحديث بما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك وان التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه والانصات لحديثه اذا حدث واستغراب كل مايأتي به ولو انه عين المحال وخرق العادات وتصديقه وان كذب وموافقته وان ظلم والشهادة له وان جار واتباعه كيف سلك واي وجه من وجوه القول تناول ومنها الاسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه والتعمد للقعود بقربه والدنو منه واطراح الاشغال الموجبة للزوال عنه والاستهانة بكل خطب جليل داع الى مفارقته والتباطيء في التي، عن القيام عنه وفي ذلك اقول شعراً :

واذا قمت عنك لم امش الا   مشي عان يقاد نحو الفناء
في مجيئي اليك احتث كالبد   ر اذا كان قاطعاً للسماء
وقيامي ان قمت كالانجم العا   لية الثابتات في الابطاء

ومنها بهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه او عند سماع اسمه فجأة وفي ذلك اقول قطعة منها

اذا ما رأت عيناي لابس حمرة   تقطع قلبي حسرة وتفطرا
غدا لدماء الناس باللحظ سافكا   وضرج منها ثوبه فتعصفرا

ومنها ان يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك كأنه هو الموهوب له والمسعى في حظه كل ذلك ليبدى محاسنه ويرغب في نفسه فكم بخيل جاد وقطوب تطلق وجبان شجع وغليظ الطبع تطرب وجاهل تأدب وتفل تزين وفقر تجمل وذي سن تفتى وناسك فتك ومصون تمسك وهذه العلامات يكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعله واستطارة لهبه فاما اذا تمكن واخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سراراً والاعراض عن

كل ما حضر الا عن المحبوب جهاراً ولي ابيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات منها :

اهوى الحديث اذا ما كان يذكر لي فيـه ويعبق لي عن عنـبر أرج
ان قال لم استمع ممن يجالسني الى سوى لفظة المستطرف الغنج
ولو يكون امـير المؤمنين معي ما كنت من اجله عنه بمنعرج
فان اقم عنـه مضطراً فاني لا ازال ملتفتاً والمشي مشي وجى
عيناي فيه وجسمي عنه مرتحـل مثل التفات الغريق البر في اللجج
اغص بالماء ان اذكر تباعده كمن تشاءب وسط النقع والوهج
وان تقل ممكن قصد السماء اقل نعم واني لادري موضـع الدرج

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذي بصر الانبساط الكثير الزائد والتضايق في المكان الواسع والمجاذبة على الشيء يأخذه احدهما وكثرة الغمز الخفي والميل بالاتكاء والتعمد لمس اليد عند المحادثة ولمس ما أمكن من الاعضاء الظاهرة وشرب فضلة ما ابقى المحبوب في الاناء وتحري المكان الذي قابل فيـه ومنها علامات متضادة وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة والاسباب المحركة والخواطر المهيجة والاضداد انداد والاشياء اذا افرطت في غايات تضادها ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت قدرة من الله عز وجل تضل فيها الاوهام فهذا الثلج اذا ادمن حبسه في اليد فعل فعل النار ونجد الفرح اذا افرط قتل والغم اذا افرط قتل والضحك اذا كثر واشتد سال الدمع من العينين وهذا في العالم كثير فنجد المحبين اذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً اكثر بهما جدهما بغير معنى وتضادهما في القول تعمداً وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الامور وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه وتأولهـا على غير معناها كل هذه تجربة ليبدو مايعتقده كل واحد منهما في صاحبه والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر

سرعة الرضى فانك بينا ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لاتقدره يصلح عند الساكن النفس السالم من الاحقاد في الزمن الطويل ولا يتجبر عند الحقود ابداً فلا تلبث ان تراهما قد عادا الى اجمل الصحبة واهدرت المعاتبة وسقط الخلاف وانصرفا في ذلك الحين بعينه الى المضاحكة والمداعبة هكذا في الوقت الواحد مراراً واذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ولايدخلنك ريب البتة ولا تتمار في ان بينهما سراً من الحب دفينا واقطع عليه قطع من لايصرفه عنه صارف .ودونكها تجربة صحيحة وخبرة صادقة هذا لايكون الا عن تكاف في المودة وائتلاف صحيح وقد رأيته كثيراً ومن اعلامه انك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب ويستلذ الكلام في اخباره ويجعلها هجيراه ولا يرتاح لشيء ارتياحه لهـ ولا ينهنهه عن ذلك تخوف ان يفطن السامع ويفهم الحاضر وحبك الشيء يعمي ويصم فلو امكن المحب ان لايكون حديث في مكان يكون فيه الا ذكر من يحبه لما تعداه ويعرض للصادق المودة ان يبتدي في الطعام وهو له مشته فما هو الا وقت ماتهتاج له من ذكر من يحب صار الطعام غصة في الحلق وشجي في المريء وهكذا في الماء وفي الحديث فانه يفاتحكه مبتهجاً فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب فتستبين الحوالة في منطقه والتقصير في حديثه وآية ذلك الوجوم والاطراق وشدة الانغلاق فبينا هو طلق الوجه خفيف الحركات صار منطبقاً متثاقلا حائر النفس جامد الحركة يبرم من الكلمة ويضجر من السؤال ومن علاماته حب الوحدة والانس بالانفراد وتحول الجسم دون حد يكون فيه ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشي دليل لايكذب ومخبر لايخون عن كلمة في النفس كامنة والسهر من اعراض المحبين وقد اكثر الشعراء في وصفه وحكوا انهم رعاة الكواكب ووصفوا طول الليل وفي ذلك اقول واذكر كتمان السر وانه يتوسم بالعلامات

تعلمت السحائب من شؤوني ... فعمت بالحيا السكب الهتون

وهذا الليل فيك غدا رفيقي　　بذلك ام على سهري معيني
فان لم ينقض الاظلام ...　　الا ما اطبقت نوماً جفوني
فليس الى النهـار لنا سبيل　　وسهد زائد في كل حـين
كأن نجومه والغيم يخـفي　　سناها عن ملاحظة العيون
ضميري في ودادك يامنـائي　　فليس يبين الا بالظنون

وفي مثل ذلك قطعة منها :

ارعى النجوم كأنني كلفت ان　　ارعى جميع ثبوتهـا والخنس
فكأنها والليل نيران الجوى　　قداضرمت في فكرتي من حندس
وكأنني امسيت حارس روضة　　خضراء وشع نبتهـا بالنرجس
لو عاش بطليموس ايقن انني　　اقوى الورى في رصد جري الكنس

والشيء قد يذكر لمـا يوجبه وقع لي في هذه الابيات تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد وهو البيت الذي اوله فكانها والليل وهذا مستغرب في الشعر ولي ما هو اكمل منه وهو تشبيه ثلاثة اشياء في بيت واحد وتشبيه اربعة اشياء في بيت واحد وكلاهما في هذه القطعة التي اوردها وهي :

مشوق معنى ما ينـام مسهد　　بخمر التجني مايزال يعربد
ففي ساعة ببدي اليك عجائبـاً　　(و) يعدو ويستحلي ويدني ويبعد
كان النوى والعتب والهجر والرضى　　قران وانداد ونحس واسعـد
رثى لغرامي بعـد طول تمنع　　واصبحت محسوداً وقد كنت احسد
نعمنا على نور من الروض زاهر　　سقته الغوادي فهو يثني ويحمد
كأن الحيا والمزن والروض عاطراً　　دموع واجفان وخد مورد

ولا ينكرن على منكر قولي قران فاهل المعرفة بالكواكب يسمون التقـاء كوكبين في درجة واحدة قراناً ولي ايضاً ماهو اتم من هذا وهو تشبيه خمسة اشياء في بيت واحد في هذه القطعة وهي :

خلوت بها والراح ثالثة لها　　وجنح ظلام الليل قد مد واثلج
فتاة عدمت العيش الا بقربها　　فهل في ابتغاء العيش ويحك من حرج
كاني وهي والكاس والخمر والدجى　　ثرى وحياً والدر والتبر والسبج

فهذا امر لامزيد فيه ولا يقدر احد على اكثر منه اذ لايحتمل العروض ولابنية الاسماء اكثر من ذلك ويعرض للمحبين القلق عند احد امرين احدهما عند رجائه لقاء من يحب فيعرض عند ذلك حائل

(خبر) واني لاعلم بعض من كان محبوبه يعده الزيارة فما كنت اراه الا جائياً وذاهباً لايقربه القرار ولايثبت في مكان واحد مقبلا مدبراً قد استخفه السرور بعد ركانة واشاطه بعد رزانة ولي في معنى انتظار الزيارة

اقمت الى ان جاءني الليل راجياً　　لقاءك ياسؤلي ويا غاية الامل
فأيأسني الاظلام عنك ولم اكن　　لأيأس يوماً ان بدى الليل يتصل
وعندي دليل ليس يكذب خبره　　بامثاله في مشكل الامر يستدل
لانك لو زمت الزيارة لم يكن　　ظلام ودام النور فينا ولم يزل

والثاني عند حادث يحدث بينهما من عتاب لاتدرى حقيقته الا بالوصف فعند ذلك يشتد القلق حتى توقف على الجلية فاما ان يذهب تحمله ان رجا العفو و (اما) ان يصير القلق حزناً واسفاً ان تخوف الهجر ويعرض للمحب الاستكانة لجفاء المحبوب عليه وسيأتي مفسراً في بابه ان شاء الله تعالى . ومن اعراضه الجزع الشديد والحمرة المقطعة تغلب عند ما يرى من اعراض محبوبه عنه ونفاره منه وآية ذلك الزفير وقلة الحركة والتأوه وتنفس الصعداء وفي ذلك اقول شعراً منه :

وجميل الصبر مسجون　　ودموع العين سارحه

ومن علاماته انك ترى المحب يحب اهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا احظى لديه من اهله ونفسه ومن جميع خاصته والبكاء من علامات الحب ولكن

يتفاضلون فيه فمنهم غزير الدمع هامل الشؤون تجيبه عينه وتحضره عبرته اذا شآء ومنهم جمود العين عديم الدمع وانا منهم وكان الاصل في ذلك ادماني اكل الكندر لخفقان القلب وكان عرض لي في الصبي فاني لاصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبي يتفطر ويتقطع واحس في قلبي غصة امر من العلقم تحول بيني وبين توفية الكلام حق مخارجه وتكاد تشوقني بالنفس احيانا ولاتجيب عيني البتة الافي الندرة بالشيء اليسير من الدمع

(خبر) ولقد اذكرني هذا الفصل يوما ودعت انا وابو بكر محمد ابن اسحق صاحبي ابا عامر محمد ابن عامر صديقاً رحمه الله في سفرته الى المشرق التي لم نره بعد فجعل ابو بكر يبكي عند وداعه وينشد متمثلا بهذا البيت :

الاان عيناً لم تجد يوم واسط عليك بباقي دمعها لجمود

وهو في رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة رحمه الله ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة وجعلت انا اكثر التفجع والاسف ولاتساعدني عيني فقلت مجيباً لابي بكر

وان امرأ لم يفن حسن اصطباره عليك وقد فارقته لجليد

وفي المذهب الذي عليه الناس اقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحلم اولها

دليل الاسى نار على القلب تلفح ودمع على الخدين يحمي ويسفح
اذا كتم المشغوف سر ضلوعه فان دموع العين تبدي وتفضح
اذا ماجفون العين سالت شؤونها ففي القلب داء للغرام مبرح

ويعرض في الحب سؤ الظن واتهام كل كلمة من احدهما وتوجيهها الى غير وجهها وهذا اصل العتاب بين المحبين واني لاعلم من كان احسن الناس ظناً واوسعهم نفساً واكثرهم صبراً واشدهم احتمالا وارحبهم صدراً ثم لايحتمل ممن يحب شيئاً ولايقع له معه ايسر مخالفة حتى يبدي من التعديد فنوناً ومن سؤ الظن وجوهاً وفي ذلك اقول شعراً منه :

أسيء ظني بكل محتقر تأتي به والحقير من حقر

كي لايرى اصل هجرة وقلى   فالنار في بده امرها شررا
واصل عظم الامور اهونها   ومن صغير النوى ترى شجرا

وترى المحب اذا لم يثق ببقاء طوية محبوبه له كثير التحفظ مما لم يكن يتحفظ قبل ذلك مثقفاً لكلامه مزيناً لحركاته ومرامي طرفه ولا سيا ان دهى بمتجن وبلى بعربد . ومن آياته : مراعاة المحب لمحبوبه وحفظه لكل ما يقع منه وبحثه عن اخباره حتى لايسقط عنه دقيقة ولاجليله وتتبعه لحركاته ولعمري لقد ترى البليد يصير في هذه الحالة ذكياً والغافل فطناً

(خبر) ولقد كنت يوماً بالمرية قاعداً في دكان اسمعيل بن يونس الطبيب الاسرائيلي وكان بصيراً بالفراسة محسناً لها وكنا في لمة فقال له مجاهد ابن الحصين القيسي ماتقول في هذا واشار الى رجل منتبذ عنا ناحية اسمه حاتم ويكنى ابا البقاء فنظر اليه ساعة يسيرة ثم قال هو رجل عاشق فقال له صدقت فمن اين قلت هذا ؟ قال : لبهت مفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته فعلمت انه عاشق وليس بمريب

﴿ باب من احب في النوم ﴾

ولا بد لكل حب من سبب يكون له اصلا وانا مبتديء بابعد مايمكن ان يكون من اسبابه ليجري الكلام على نسق وان يبتدأ ابدأ بالسهل والأهون فمن اسبابه شيء لولا اني شاهدته لم اذكره لغرابته .

(خبر) وذلك اني دخلت يوماً على ابي السري عمار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد فوجدته مفكراً مهتماً فسألته عما به فتمنع ساعة ثم قال لي اعجوبة ماسمعت قط قلت وما ذاك قال رأيت في نومي الليلة جارية فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها وهمت بها واني لفي اصعب حال من حبها ولقد بقي اياماً كثيرة يزيد على الشهر مغموماً مهموماً لايهنئه شيء وجداً الى ان عذلته وقلت له

ومن الخطأ العظيم ان تشغل نفسك بغير حقيقة وتعلق وهمك بموهوم هل تعلم من هي قال لا والله قلت انك لقليل الرأي مصاب البصيرة اذ تحب من لم تره قط ولا خلق ولا هو في الدنيا ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي اعذر فما زلت به حتى سلا وما كاد وهذا عندي من حديث النفس واضغاثها وداخل في باب التمني وتخيل الفكر وفي ذلك أقول شعراً منه :

يا ليت شعري من كانت وكيف سرت أطلعة الشمس كانت ام هي القمر
اظنه العقل ابداه تدبره او صورة الروح ابدتها الى الفكر
او صورة مثلت في النفس من املي فقد تحيل في ادراكها البصر
او لم يكن كل هذا فهي حادثة اتى بها سبباً في حتفي القدر

﴿ باب من احب بالوصف ﴾

ومن غريب اصول العشق ان تقع المحبة بالوصف دون المعاينة وهذا امر يترقى منه الى جميع الحب فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسهر على غير الابصار فان للحكايات ونعت المحاسن ووصف الاخبار تأثيراً في النفس ظاهراً وان تسمع نغمتها من وراء جدار فيكون سبباً للحب واشتغال البال وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ولكنه عندي بنيان هار على غير أس وذلك ان الذي افرغ ذهنه في هوى من لم ير لابد له اذ يخلو بفكره ان يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعيناً يقيمها نصب ضميره لايتمثل في هاجسه غيرها قد مال بوهمه نحوها فان وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الامر او يبطل بالكلية وكلا الوجهين قد عرض وعرف واكثر ما يقع هذا في ربات القصور المحجوبات من اهل البيوتات مع اقاربهن من الرجال وحب النساء في هذا اثبت من

حب الرجال لضعفهن وسرعة اجابة طبائعهن الى هذا الشأن وتمكنه منهن وفي ذلك اقول شعراً منه :

ويا لائمي في حب من لم يره طرفي
لقد افرطت في وصفك لي في الحب بالضعف
فقل هل تعرف الجنة يوماً بسوى الوصف

واقول شعراً في استحسان النغمة دون وقوع العين على العيان منه :

قد حل جيش الغرام سمعي   وهو على مقلتي يبدو

واقول ايضاً في مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية :

وصفوك لي حتى اذا ابصرت ما   وصفوا علمت بانه هذيان
فالطبل جلد فارغ وطنينه   يرتاع منه ويفرق الانسان

وفي ضد هذا اقول :

لقد وصفوك لي حتى التقينا   فصار الظن حقاً في العيان
فاوصاف الجنان مقصرات   على التحقيق عن قدر الجنان

وان هذه الاحوال لتحدث بين الاصدقاء والاخوان وعنى احدث (خبر) انه كان بيني وبين رجل من الاشراف ود وكيد وخطاب كثير وما تراءينا قط ثم منح الله لي لقاءه فما مرت الا ايام قلائل حتى وقعت لنا منافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة الى الآن فقلت في ذلك قطعة منها :

ابدلت اشخاصنا كرهاً وفرط قلى   كما الصحائف قد يبدلن بالنسخ

ووقع لي ضد هذا مع ابى عامر ابن ابى عامر رحمة الله عليه فاني كنت له على كراهة صحيحة وهو لي كذلك ولم يرني ولا رأيته وكان اصل ذلك تنقيلاً يحمل اليه عني والي عنه يؤكده انحراف بين ابوينا لتنافسهما فيما كا فيه من صحبة السلطان ووجاهة الدنيا ثم وفق الله الاجتماع به فصار لي اود الناس وصرت له كذلك الى ان حال الموت بيننا وفي ذلك اقول قطعة منها

اخ لي كسبنيه اللقـاء واوجدني فيه علقاً شريفاً
وقد كنت آكرهمنه الجوار وماكنت ارغبه لي اليفاً
وكان البغيض فصارالحبيب وكان الثقيل فصار الخفيفا
وقدكنتادمنعنهالوجيف فصرت اديم اليه الوجيفا

واما ابو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبري فكان لي صديقاً مدة على غير رؤية ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت الى الآن

﴿ باب من احب من نظرة واحدة ﴾

وكثيراً ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة وهو ينقسم قسمين فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا وهو ان يعشق المرء صورة لايعلم من هي ولايدري لها اسماً ولا مستقراً وقد عرض هذا لغير واحد

(خبر) حدثني صاحبنا ابو بكر محمد بن احمد بن اسحق عن ثقة اخبره سقط عني اسمه وأظنه القاضي بن الحذاء ان يوسف بن هرون الشاعر المعروف بالرمادي كان مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة وهذا الموضع كان مجتمع النسآء فرأى جارية اخـذت بمجامع قلبه وتخلل حبها جميع اعضائه فانصرف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة فجازتها الى الموضع المعروف بالربض فلما صارت بين رياض بني مروان رحمهم الله المبنية على قبورهم في مقبرة الربض خلف النهر نظرت منه منفرداً عن النـاس لا همة له غيرها فانصرفت اليه فقالت له مالك تمشي ورائي فاخبرها بعظيم بليته بها فقالت له دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي فلا مطمع لك في التية ولا الى ما ترغبه سبيل فقال اني اقنع بالنظر فقالت ذلك مباح لك فقال لهـا ياسيدتي أحرة أم مملوكة قالت مملوكة فقال لها ما اسمك قالت خلوة قال ولمن انت فقالت له علمك والله بما في السماء السابعة اقرب اليك ممـا سألت عنه فدع المحـال

فقال لهـا ياسيدتي واين اراك بعد هذا قالت حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كل جمعة فقالت له إما تنهض انت وإما أنهض انا فقال لها انهضي في حفظ الله فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لانهـا كانت تلتفت نحوه لترى ابسايرها ام لا فلما تجاوزت باب القنطرة اتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة قال ابو عمر وهو يوسف بن هرون فوالله لقد لازمت باب العطـارين والربض من ذلك الوقت الى الآن فما وقعت لها على خبر ولا ادري أسمـاء لحستها أم أرض بلعتها وأن في قلبي منها لأحر من الجمر وهي خلوة التي يتغزل بها في اشعاره ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها الى سرقسطة في قصة طويلة ومثل ذلك كثير وفي ذلك اقول قطعة منها :

عيني جنت في فؤادي لوعة الفكر ... فأرسل الدمع مقتصـاً من البصر
فكيف تبصر فعل الدمع منتصفاً ... منها باغراقها في دمعهـا الدرر
لم القها قبـل أبصاري فاعرفها ... وآخر العهد منها ساعة النظر

(والقسم الثاني) مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب ان شاء الله وهو ان يعلق المرء من نظرة واحدة جـارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ ولكن التفاضل يقع في هذا في سرعة الفناء وابطائه فمن احب من نظرة واحدة واسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليـل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو وشاهد الظرافة والملل وهكذا في جميع الاشياء اسرعها نمواً اسرعها فنـاء وابطؤها حدوثاً ابطؤها نفاذاً

(خبر) اني لأعلم فتياً من ابناء الكتاب ورأته امرأة سرية النشأة عالية المنصب غليظة الحجاب وهو مجتاز ورأته في موضع تطلع منه كان في منزلهـا فعلقته وعلقها وتهاديا المراسلة زماناً على ارق من حد السيف ولولا اني لم اقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكائد لاوردت مما صح عندي اشياء تحير اللبيب وتدهش العاقل اسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنه وكفانا

﴿ باب من لايحب الا مع المطاولة ﴾

ومن الناس من لاتصح محبته الابعد طول المخافتة وكثير المشاهدة ومتمادي الأنس وهذا الذي يوشك ان يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مر الليالي فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً وهذا مذهبي وقد جاء في الاثر (ان الله عز وجل قال للروح حين امره ان يدخل جسد آدم وهو فخار فهاب وجزع أدخل كرهاً واخرج كرهاً) حدثناه عن شيوخنا ولقد رأيت من اهل هذه الصفة من ان احس من نفسه بابتداء هوى او توحش من استحسانه ميلاً الى بعض الصور استعمل الهجر وترك الالمام لئلا يزيد مايجد فيخرج الأمر عن يده ويحال بين العير والنزوان وهذا يدل على لصوق الحب باكباد اهل هذه الصفة وانه اذا تمكن منهم لم يحل ابداً وفي ذلك اقول قطعة منها :

سأبعد عن دواعي الحب أني　　رأيت الحزم من صفة الرشيد
رأيت الحب اوله التصدي　　بعينك في ازاهير الخدود
فبينا انت مغتبط مخلى　　اذا قد صرت في حلق القيود
كمغتر بضحضاح قريب　　فذل فغاب في غمر المدود

واني لأطيل العجب من كل من يدعي انه يحب من نظرة واحدة ولاأكاد أصدقه ولاأجعل حبه الا ضرباً من الشهوة واما ان يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما اقدر ذلك وما لصق باحشائي حب قط الا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهراً وأخذي معه في كل جد وهزل وكذلك انا في السلو والتوق فما نسيت وداً لي قط وان حنيني الى كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء وقد استراح من لم تكن هذه صفته وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به ولااسرعت الى الانس بشيء قط اول لقائي له وما رغبت الاستبدال الى سبب من اسبابي مذ كنت لا اقول في الألاف

والاخوان وحدهم لكن في كل مايستعمل الانسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك وما انتفعت بعيش ولا فارقني الاطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة وانه لشجى يعتادني وولوع هم ماينفك يطرقني ولقد نغص تذكري مامضى كل عيش استأنفه وأني لقتيل الهموم في عداد الاحياء ودفين الاسى بين اهل الدنيا والله المحمود على كل حال لا اله الا هو . وفي ذلك اقول شعراً منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة ولا وريت حين ارتياد زنادها
ولكن على مهل سرت وتولدت بطول امتزاج فاستقر عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا انا نرى كل نشأة تتم سريعاً عن قريب نهادها
ولكنني ارض عزاز صليبة منيع الى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقها فليست تبالي ان يجود عهادها

ولا يظن ظان ولا يتوهم متوهم ان كل هذا خلاف لقولي المسطر في صدر الرسالة ان الحب اتصال بين النفوس في اصل عالمها العلوي بل هو مؤكد له فقد علمنا ان النفس في هذا العالم الادنى قد غمرتها الحجب ولحقتها الاعراض واحاطت بها الطبائع الارضية الكورية فسترت كثيراً من صفاتها وان كانت لم تحله لكن حالت دونه فلا يرجى الاتصال على الحقيقة الا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له وبعد ايصال المعرفة اليها بما يشاكلها ويوافقها ومقابلة الطبائع التي خفت مما يشابهها من طبائع المحبوب فحينئذ يتصل اتصالا صحيحاً بلا مانع . واما مايقع من اول وهلة ببعض اعراض الاستحسان الجسدي واستطراف البصر الذي لايجاوز الالوان وهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة فاذا فضلت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفضل اتصال نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقاً ومن هذا دخل الغلط على من يزعم انه يحب اثنين ويعشق

شخصين متغايرين فانما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفاً وهي على المجاز تسمى محبة لاعلى التحقيق واما نفس المحب فما في الميل به فضل يصرفه من اسباب دينه ودنياه فكيف بالاشتغال بحب ثان وفي ذلك اقول :

كذب المدعي هوى اثنين حتما　　مثل مافي الاصول اكذب ماني
ليس في القلب موضع لحبيبـ　　ـن ولا احدث الامور بثاني
فكما العقل واحدليس يدري　　خالقاً غير واحد رحمان
فكذا القلب واحد ليس يهوى　　غير فرد مباعد اومدان
هو في شرعة المودة ذو شك　　بعيد من صحة الايمان
وكذا الدين واحد مستقيم　　وكفور من عنده دينان

واني لأعرف فتى من اهل الجدة والحسب والأدب كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حبه واكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه وقطوب دائم كان لايفارقه ولاسيما مع النساء فكان لايلبث الا يسيراً ريثما يصل اليها بالجماع ويعود ذلك الكره حباً مفرطاً وكلفاً زائداً واستهتاراً مكشوفاً وبتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه صحبته هذا الامر فى عدة منهن فقال بعض اخواني فسألته عن ذلك فتبسم نحوي وقال اذاً والله اخبرك انا ابطأ الناس انزالا تقضي المرأة شهوتها وربما ثنت وانزالي وشهوتي لم ينقضيا بعد وما فترت بعدها قط واني لأبقى بحسبي بعد انقضائها الحين الصالح وما لاقى صدري صدر امرأة قط عند الخلوة الا عند تعمدي المعانقة وبحسب ارتفاع صدري نزول مؤخري فمثل هذا وشبهه اذا وقع وافق اخلاق النفس وولد المحبة اذ الاعضاء الحساسة مسالك الى النفوس ومؤديات نحوها (١)

---

(١) خطر لنا حذف ما في هذا الكتاب مما يماثل هذا بيد اننا لم نبح لانفسنا اسقاط ما ارتضاه ابن حزم لكتابه وما نحن باورع ولا اتقى ولا احفظ لحرمة الاخلاق منه .

﴿ باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها ﴾

واعلم اعزك الله ان للحب حكماً على النفوس ماضياً وسلطاناً قاضياً وامراً لايخالف وحداً لايعصى وملكاً لايتعدى وطاعة لاتصرف ونفاذاً لايرد وانه ينقض المرر ويحيل المبرم ويحلل الجامد ويحل الثابت ويحل الشغاف ويحل الممنوع ولقد شاهدت كثيراً من الناس لايتهمون في تمييزهم ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا اختلال بحسن اختيارهم ولاتقصير في حدسهم قد وصفوا احباباً لهم في بعض صفاتهم ما ليس بمستحسن عند الناس ولايرضى في الجمال فصارت هجيراهم وعرضة لاهوائهم ومنتهى استحسانهم ثم مضى اولئك اما بسلو او ببين او هجر او بعض عوارض الحب وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولابان عنهم تفضيلها على ما هو افضل منها في الخليقة ولامالوا الى سواها بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى ان فارقوا الدنيا وانقضت اعمارهم حنيناً منهم الى من فقدوه والفة لمن صحبوه وما اقول ان ذلك كان تصنعاً لكن طبعاً حقيقياً واختياراً لاداخلة فيه ولايرون سواه ولا يقولون في طي عقدهم بغيره واني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص فما استحسن اغيد ولا غيداء بعد ذلك واعرف من كان اول علاقته بجارية مائلة الى القصر فما احب طويلة بعد هذا واعرف ايضاً من هوى جارية في فمها فوه لطيف فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة وما اصف من متوصي الحظوظ في العلم والادب لكن عن اوفر الناس قسطاً في الادراك واحقهم باسم الفهم والدراية . وعني اخبرك اني احببت في صباي جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو انه على الشمس او على صورة الحسن نفسه واني لاجد هذا في اصل تركيبي من ذلك الوقت لاتؤاتيني نفسي على سواه ولاتحب غيره البتة وهذا العارض بعينه

عرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى الى ان وافاه اجله واما جماعة خلفاء بني مروان رحمهم الله ولاسيما ولد الناصر منهم فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة لايختلف في ذلك منهم مختلف وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر الى الآن فما منهم الا اشقر نزاعاً الى امهاتهم حتى قد صار ذلك فيهم خلقة حاشى سليمان الظافر رحمه الله فاني رأيته اسود اللمة واللحية واما الناصر والحكم المستنصر رضي الله عنهما فحدثني الوزير ابي رحمه الله وغيره انهما كانا اشقرين اشهلين وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرحمن المرتضى رحمهم الله فاني قد رأيتهم مراراً ودخلت عليهم فرأيتهم شقراً شهلا وهكذا اولادهم واخوتهم وجميع اقاربهم فلا ادري أذلك استحسان مركب في جميعهم ام لرواية كانت عند اسلافهم في ذلك فجروا عليها وهذا ظاهر في شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن امير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطليق وكان اشعر اهل الاندلس في زمانهم واكثر تغزله فبالشقر وقد رأيته وجالسته وليس العجب فيمن احب قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك في سواه فقد وقع من ذلك ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الادنى ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ثم غلب عليه هوى عارض بعد طول بقائه في الجماعة فاحاله عما عهدته نفسه حوالة صارت له طبعاً وذهب طبعه الاول وهو يعرف فضل ما كان عليه اولا فاذا رجع الى نفسه وجدها تأبى الا الادنى فاعجب لهذا التغلب الشديد والتسليط العظيم وهو اصدق المحبة حقاً لامن يتحلى بشيم قوم ليس منهم ويدعي غريزة لاتقبله فيزعم انه يتخير من يحب اما لو شغل الحب بصيرته واجاح فكرته واجحف بتمييزه لحال بينه وبين التخيل والارتياد وفي ذلك اقول شعراً منه :

منهم فتى كان في محبوبه وقص   كأنما الغيد في عينيه اجنان
وكان منبسطاً في فضل خيرته   بحجة حتمها في القول تبيان

ان المها وبها الامثال سائرة   لايفكر الحسن فيه الدهر انسان
وقص فليس بها عنقاء واحدة   وهل تزان بطول الجيد بعران
وآخر كان في محبوبه فوه   يقول حسبي في الافواه غزلان
وثالث كان في محبوبه قصر   يقول ان ذوات الطول غيلان

واقول ايضاً :

يعيبونها عندي بشقرة شعرها   فقلت لهم هذا الذي زانها عندي
يعيبون لون النور والتبر ضلة   لرأي جهول في الغواية ممتد
وهل عاب لون النرجس الغض عائب   ولون النجوم الزاهرات على البعد
وابعد خلق الله من كل حكمة   مفضل جرم فاحم اللون مسود
به وصفت الوان اهل جهنم   ولبسة باك مثكل الاهل محتد
ومذ لاحت الرايات سوداً تيقنت   نفوس الورى ان لا سبيل الى الرشد

﴿ باب التعريض بالقول ﴾

ولا بد لكل مطلوب من مدخل اليه وسبب يتوصل به نحوه فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة الا العليم الاول جل ثناءه فاول مايستعمل طلاب الوصل واهل المحبة في كشف ما يجدونه الى احبتهم التعريض بالقول اما بانشاد شعر او بارسال مثل او تعمية بيت او طرح لغز او تسليط كلام والناس يختلفون في ذلك على قدر ادراكهم وعلى حسب مايرونه من احبتهم من نفار او انس او فطنة او بلادة واني لاعرف من ابتدأ كشف محبته الى من كان يحب بابيات قالها فهذا وشبهه يبتديء به الطالب للمودة فان رأى انساً وتسهيلاً زاد وان يعاين شيئاً من هذه الامور في حين انشاده لشيء مما ذكرناه او ايراده لبعض المعاني التي حددنا وانتظاره الجواب اما بلفظ او بهيئة الوجه والحركات لموقف بين الرجاء واليأس هائل وان كان حيناً قصيراً ولكنه اشراف على بلوغ الامال

او انقطاعه (ومن التعريض بالقول) جنس ثان ولايكون الا بعد الاتفاق ومعرفة المحبة من المحبوب فحينئذ يقع التشكي وعقد المواعد والتعديد واحكام المودات بالتعريض وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غير مايذهبان اليه فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى الى المقصود بالكلام على حسب مايتأدى الى سمعه ويسبق الى وهمه وقد فهم كل واحد منهما عن صاحبه واجابه بما لايفهمه غيرهما الا من أيد بحس نافذ واعين بذكاء وامد بتجربة ولاسيما ان احس من معانيهما بشيء وقل مايغيب عن المتوسم المجيد فهنالك لاخفاء عليه في مايريدان

(وانا اعرف) فتي وجارية كانا يتحابان فارادها في بعض وصلها على بعض ما لايجمل فقالت والله لاشكونك في الملا علانية ولافضحنك فضيحة مستورة فلما كان بعد ايام حضرت الجارية مجلس بعض اكابر الملوك واركان الدولة واجل رجال الخلافة وفيه ممن يتوقى امره من النساء والخدم عدد كثير وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى لانه كان بسبب من الرئيس وفي المجلس مغنيات غيرها فلما انتهى الغناء اليها سوّت عودها واندفعت تغني بابيات قديمة وهي :

غزال قد حكى بدر التمام ... كشمس قد تجلت من غمام
سبى قلبي باللحظ مراض ... وقد الغصن في حسن القوام
خضعت خضوع صب مستكين ... له وذلت ذلة مستهام
فصلني يا فدتك في حلال ... فما اهوى وصالا في حرام

وعلمت انا هذا الامر فقلت :

عتاب واقع وشكاة ظلم ... اتت من ظالم حكم وخصم
تشكت ما بها لم يدر خلق ... سوى المشكو ما كانت تسمي



﴿ باب الأشارة بالعين ﴾

ثم يتلو التعريض بالقول اذا وقع القبول والموافقة الاشارة بلحظ العين وانه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود ويبلغ المبلغ العجيب ويقطع به ويتواصل ويوعد ويهدد وينتهر ويبسط ويؤمر وينهى وتضرب به الاوعاد وينبه على الرقيب ويضحك ويحزن ويسئل ويجاب ويمنع ويعطى ولكل واحد من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ لايوقف على تحديده الا بالرؤية ولايمكن تصويره ولا وصفه الا الاقل منه وانا واصف ماتيسر من هذه المعاني فالاشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الامر وتفتيرها اعلام بالقبول وادامة نظرها دليل على التوجع والاسف وكسر نظرها آية الفرج والاشارة الى اطباقها دليل على التهديد وقلب الحدقة الى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار اليه والاشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال وقلب الحدقة من وسط العين الى الماق بسرعة شاهد المنع وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام وسائر ذلك لايدرك الا بالمشاهدة واعلم ان العين تنوب عن الرسل ويدرك بها المراد والحواس الاربع ابواب الى القلب ومنافذ نحو النفس والعين ابلغها واصحها دلالة واوعاها عملًا وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتحوز الصفات وتفهم المحسوسات وقد قيل ليس المخبر كالمعاين وقد ذكر ذلك افليمون صاحب الفراسة وجعلها معتمدة في الحكم وبحسبك من قوة ادراك العين انها اذا لاقى شعاعها شعاعاً مجلياً صافياً اما حديداً مصقولا او زجاجاً او ماء او بعض الحجارة الصافية او سائر الاشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص واللمعان يتصل اقصى حدوده بجسم كثيف ساتر مانع كدر انعكس شعاعها فادرك الناظر نفسه وحازه عياناً وهو الذي ترى في المرآة فانت حينئذ كالناظر اليك بعين غيرك ودليل عياني

على هذا انك تأخذ مرآتين كبيرتين فتمسك احدهما بيمينك خلف رأسك والثانية بيسارك قبالة وجهك ثم تزويها قليلاً حتى يلتقيان بالمقابلة فانك ترى قفاك وكل ماوراءك وذلك لانعكاس ضؤ العين الى ضوء المرآة التي خلفك اذ لم تجد منفذاً في التي بين يديك ولما لم تجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف الى ماقابله من الجسم وان كان صالح غلام ابي اسحق النظام خالف في الادراك فهو قول ساقط لم يوافقه عليه احد ولو لم يكن من فضل العين الا ان جوهرها ارفع الجواهر واعلاها مكانا لانها نورية لاتدرك الالوان بسواها ولاشيء ابعد مرمى ولا انأى غاية منها لانها تدرك بها اجرام الكواكب التي في الافلاك البعيدة وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبعدها وليس ذلك الا لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرآة فهي تدركها وتصل اليها بالظفر لاعلى قطع الاماكن والحلول في المواضع وتنقل الحركات وليس هذا لشيء من الحواس مثل الذوق واللمس لايدركان الا بالمجاورة والسمع والشم لايدركان الا من قريب ودليل على ماذكرناه من الظفر انك ترى المصوت قبل سماع الصوت وان تعمدت ادراكهما معاً وان كان ادراكهما واحداً لما تقدمت العين والسمع .

(باب المراسلة)

ثم يتلو ذلك اذا امتزجا المراسلة بالكتب وللكتب آيات ولقد رأيت اهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكتب وبحلها في الماء وبمحو اثرها فرب فضيحة كانت بسبب كتاب وفي ذلك اقول :

عزيز عليّ اليوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف للود قاطع
فآثرت ان يبقى وداد ويمتحى مداد فان الفرع للاصل تابع
فكم من كتاب فيه ميتة ربه ولم يدره اذ نمقته الاصابع

وينبغي ان يكون شكل الكتاب الطف الاشكال وجنسه املح الاجناس ولعمري ان الكتاب للسان في بعض الاحايين اما لحصر في الانسان واما لحياء واما لهيبة نعم حتى ان لوصول الكتاب الى المحبوب وعلم المحب انه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية وان لرد الجواب والنظر اليه سروراً يعدل اللقاء ولهذا ماترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه ولعهدي ببعض اهل المحبة ممن كان يدري ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويجيد النظر ويدقق في الحقائق لايدع المراسلة وهو ممكن الوصل قريب الدار اتي المزار ويحكي انها وجوه اللذة ولقد اخبرت عن بعض السقاط الوضعاء انه كان يضع كتاب محبوبه على احليله وان هذا النوع من الاغتلام قبيح وضرب من الشبق فاحش واما سقي الحبر بالدمع فاعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه بسقي الحبر بالريق وفي ذلك اقول :

جواب أتاني عن كتاب بعثته فسكن مهتاجاً وهيج ساكناً
سقيت بدمع العين لما كتبته فعال محب ليس في الود خائناً
فما زال ماء العين يمحو سطوره فيا ماء عيني قد محوت المحاسنا
غدا بدموعي اول الخط بيننا واضحى بدمعي آخر الخط بائنا

(خبر) ولقد رأيت كتاب المحب الى محبوبه وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم واستمد منه وكتب به الكتاب اجمع ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت انه يصبغ اللك .

﴿ باب السفير ﴾

ويقع في الحب بعد هذا بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس ادخال السفير ويجب تخيره وارتياده واستجادته واستفراهه فهو دليل عقل المرء وبيده حياته وموته وستره وفضيحته بعد الله تعالى فينبغي ان يكون الرسول ذا هيأة حاذقاً

يكتفي بالاشارة ويقرطس عن الغائب ويحسن من ذات نفسه ويضع من عقله ما اعقله باعثه ويؤدي الى الذي ارسله كل مايشاهد على وجهه كاتماً للاسرار حافظاً للعهد وفياً قنوعاً ناصحاً ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار مانقصه منها وفي ذلك اقول شعراً منه :

رسولك سيف في يمينك فاستجد حساماً ولاتضرب به قبل صقله

فمن يك ذا سيف كهام فضره يعود على المعنيّ منه بجهله

واكثر ما يستعمل المحبون في ارسالهم الى من يحبونه اما حائلا لايؤبه له ولا يهتدي للتحفظ منه لصباه او لهيأة رثة او بدادة في طلعته واما جليلاً لاتلحقه الظنن لنسك يظهره او لسن عالية قد بلغها وما اكثر هذا في النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الاحمرين واني لاذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيث مارأينها او ذوات صناعة يقرب بها من الاشخاص فمن النساء كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصناع في المغزل والنسج وما اشبه ذلك او ذا قرابة من المرسل اليه لايشح بها عليه فكم منيع سهل بهذه الاوصاف وعسير يسر وبعيد قرب وجموح انس وكم داهية دهت الحجب المصونة والاستار الكثيفة والمقاصير المحروسة والسدد المضبوطة لارباب هذه النعوت ولولا ان انبه عليها لما ذكرتها ولكن لقطع النظر فيها وقلة الثقة بكل واحد والسعيد من وعظ بغيره وبالضد اسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره ولا ازال عن الجميع ظل العافية

(خبر) واني لاعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة ويعقد الكتاب في جناحها وفي ذلك اقول قطعة منها

تخيرها نوح فما خاب ظنه لديها وجآءت نحوه بالبشائر

سأودعها كتبي اليك فها كها رسائل تهدى في قوادم طائر

﴿ باب طي السر ﴾

ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان وجحود المحب ان سئل والتصنع باظهار الصبر وان يري انه عزهاة (١) خلي ويأبى السر الدقيق ونار الكلف المتأججة في الضلوع الاظهوراً في الحركات والعين ودبيباً كدبيب النار في الفحم والماء في يبس المدر وقد يمكن التمويه في اول الامر على غير ذي الحس اللطيف واما بعد استحكامه فحال وربما يكون السبب في الكتمان تصاون المحب عن ان يسم نفسه بهذه السمة عند الناس لانه يزعمه من صفات اهل البطالة فيفر منه ويتفادى منه وما هذا وجه التصحيح فبحسب المرء المسلم ان يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة واما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لايؤمر به ولا ينهى عنه اذ القلوب بيد مقلبها ولا يلزمها غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطاء والصواب وان يعتقد الصحيح باليقين واما المحبة فخلقة وانما يملك الانسان حركات جوارحه المكتسبة وفي ذلك اقول :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى　　وسيان عندي فيك لاح وساكت
يقولون جانبت التصاون جملة　　وانت عليهم بالشريعة قانت
فقلت لهم هذا الرياء بعينه　　صراحاً وزي للمرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد　　وهل منعه في محكم الذكر ثابت
اذا لم اواقع محرماً اتقي به　　مجيئي يوم البعث والوجه باهت
فلست ابالي في الهوى قول لائم　　سواء لعمري جاهر او مخافت
وهل يلزم الانسان الا اختياره　　وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت

---

(١) قال في الاساس : هوعزهاة عن اللهو والنساء اذا لم يردهن ورغب عنهن . قال
اذا كنت عزهاة عن اللهو والصبا　　فكن حجراً من يابس الصخرجلمدا

(خبر) واني لأعرف بعض من امتحن بشيء من هذا فسكن الوجد بين جوانحه فرام جحده الى ان غلظ الامر وعرف ذلك في شمائله من تعرض للمعرفة ومن لم يتعرض وكان من عرض له بشيء نجهه (١) وقبحه الى ان كان من اراد الحظوة لديه من اخوانه يوهمه تصديقه في انكاره وتكذيب من ظن به غير ذلك فسر بهذا ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما في ضميره وهو ينتفي غاية الانتفاء اذا اجتاز بهما الشخص الذي كان يتهم بعلاقته فما هو الا ان وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيأته الاولى واصفر لونه وتفاوتت معاني كلامه بعد حسن تثقيف فقطع كلامه المتكلم معه فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره فقيل له ما عدا عما بدا فقال هو ما تظنون عذر من عذر وعذل من عذل في ذلك اقول شعراً منه :

ماعاش الا لان الموت يرحمه مما يرى من تباريح الضنى فيه

وانا اقول :

دموع الصب تنسفك وستر الصب ينهتك
كأن القلب اذ يبدو قطاة ضمها شرك
فيا أصحابنا قولوا فان الرأي مشترك
الى كم ذا أكاتمه وما لي عنه مترك

وهذا انما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان والتصاون لطبع المحب وغلبته فيكون صاحبه متحيراً بين نارين محرقتين وربما كان سبب الكتمان ابقاء المحب على محبوبه وان هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع وفي ذلك اقول :

درى الناس أني فتى عاشق كئيب معنى ولكن بمن
اذا عاينوا حالتي ايقنوا وان فتشوا رجعوا في الظنن
كخط يرى رسمه ظاهراً وان طلبوا شرحه لم يبن

---

(١) نجه الرجل رده اقبح رد

كصوت حمام على ايكة يرجع بالصوت في كل فن
تلذ بفحواه أسماعنـا ومعناه مستعجم لم يبن
يقولون بالله سم الذي نفى حبه عنك طيب الوسن
وهيهات دون الذي حاولوا ذهاب العقول وخوض الفتن
فهم ابداً في احتلاج الشكوك بظن كقطع وقطع كظن

وفي كتمان السر أقول قطعة منها :

للسر عندي مكان لو يحـل به حي اذا لا اهتدى ريب المنون له
امته وحيـاة السر ميته كما سرور المعنى في الهوى الوله

وربما كان سبب الكتمان توقي المحب على نفسه من اظهـار سره لجلالة قدر المحبوب

(خبر) ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعراً تغزل فيه بصبح ام المؤيد رحمه الله فغنت به جارية ادخلت على المنصور محمد ابن ابى عامر ليبتاعها فامر بقتاها

(خبر) وعلى مثل هذا قتل احمد بن مغيث واستئصال آل مغيث والتسجيل عليهم الا يستخدم بواحد منهم ابداً حتى كان سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم فلم يبق منهم الا الشريد الفال وكان سبب ذلك تغزله باحدى بنات الخلفاء ومثل هذا كثير ويحكى عن الحسن بن هانيء انه كان مغرماً بحب محمد بن هارون المعروف بابن زبيدة واحس منه ببعض ذلك فانتهره على أدامة النظر اليه فذكر عنه انه قال انه كان لايقدر ان يديم النظر اليه الا مع غلبة السكر على محمد وربما كان سبب الكتمان الا ينفر المحبوب او ينفر به فاني أدري من كان محبوبه له سكناً وجليساً ولو باح باقل سبب من انه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلت نجومها وهذا ضرب من السياسة ولقد كان يبلغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه الى فوق الغاية وابعد النهاية فما هو الا ان باح اليه

بما يجد صار لايصل الى التافه اليسير مع التيه ودالة الحب وتمنع الثقة بملك الفؤاد وذهب ذلك الانبساط ووقع التصنع والتجني فكان اخاً فصار عبداً ونظيراً فعاد اسيراً ولو زاد في برحه شيئاً الى ان يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه الا في الطيف ولانقطع القليل والكثير واعاد ذلك عليه بالضرر وربما كان من اسباب الكتمان الحياء الغالب على الانسان وربما كان من اسباب الكتمان ان يرى المحب من محبوبه انحرافاً وصداً ويكون ذا نفس ابية فيستتر بما يجد لئلا يشمت به عدو او يريهم ومن يحب هوان ذلك عليه

﴿ باب الاذاعة ﴾

وقد تعرض في الحب الاذاعة وهو من منكر مايحدث من اعراضه ولها اسباب منها ان يريد صاحب هذا الفعل ان يتزيي بزي المحبين ويدخل في عدادهم وهذه خلافة لارضي وتحليج بغيض ودعوى في الحب زائفة وربما كان من اسباب الكشف غلبة الحب وتسور الجهر على الحيآء فلا يملك الانسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلا وهذا من ابعد غايات العشق واقوى تحكمه على العقل حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح والقبيح في هيئة الحسن وهنالك يرى الخير شراً والشر خيراً وكم من مصون الستر مسبل القناع مسدول الغطآء قد كشف الحب ستره واباح حريمه واهمل حماه فصار بعد الصيانة علماً وبعد السكون مثلًا وأحب شيء اليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ولطالت استعاذته منه فسهل ماكان وعراً وهان ما كان عزيزاً ولان ماكان شديداً ولعهدي بفتى من سروات الرجال وعلية اخواني قد دهي بمحبة جارية مقصورة فلم بها وقطعه حبها عن كثير من مصالحه وظهرت آيات هواه لكل ذي بصر الى ان كانت هي تعذله على ما ظهر منه مما يقوده اليه هوى .

(خبر) وحدثني موسى بن عاصم بن عمرو قال كنت بين يدى ابي الفتح والدي رحمه الله وقد امرني بكتاب اكتبه اذ لمحت عيني جارية كنت اكلف بها فلم املك نفسي ورميت الكتاب عن يدي وبادرت نحوها وبهت ابي وظن انه عرض لي عارض ثم راجعني عقلي فمسحت وجهي ثم عدت واعتذرت بانه غلبني الرعاف واعلم ان هذا داعية نفار المحبوب وفساد في التدبير وضعف في السياسة وما شيء من الاشياء الا وللمأخذ فيه سنة وطريقة متى تعداها الطالب او خرق في سلوكها انعكس بعمله عليه وكان كده عناء وتعبه هباء وبحثه زيادة وكلما زاد عن وجه السيرة انحرافاً وفي تجنبها اغراقاً وفي غير الطريق ايغالا ازداد عن بلوغ مراده بعداً وفي ذلك اقول قطعة منها :

ولاتسع في الأمر الجسيم تهازئاً ولا تسع جهراً في اليسير تريده
وقابل افانين الزمان متى يرد عليك فان الدهر جم وروده
فاشكالها من حسن سعيك يكفك اليسير بغير والشريد شريده
الم تبصر المصباح اول وقده واشعاله بالنفخ يطفا وقوده
وان ينصرم لفحه ولهيبه فنفخك يذكيه وتبدو مدوده

(خبر) واني لاعرف من اهل قرطبة من ابناء الكتاب وجلة الخدمة من اسمه احمد بن فتح كنت اعهده كثير التصاون من بغاة العلم وطلاب الادب يبز اصحابه في الانقباض ويفوت في الدعة لايظهر الا في حلقة فضل ولايرى الا في محفل مرضي محمود المذاهب جميل الطريقة بائناً بنفسه ذاهباً بها ثم ابعدت الاقدار داري من داره فأول خبر طرأ علي بعد اطاءتي شاطبة انه خلع عذاره في حب فتى من ابناء القتانين يسمى ابراهيم بن احمد اعرفه لاتستأهل صفاته محبة من بيته خير وتقدم واموال عريضة ووفر تالد وصح عندي انه كشف رأسه وابدى وجهه ورمى رسنه وحسر محياه وشمر عن ذراعيه وصمد صمد الشهوة فصار حديثاً للسمار ومدافعاً بين نقلة الاخبار وتهودي ذكره في

الاقطار وجرت نقلته في الارض راحلة بالتعجب ولم يحصل من ذلك الا على كشف الغطاء واذاعة السر وشنعة الحديث وفتح الاحدوثة وشرود محبوبه عنه جملة والتحظير عليه من رؤيته البتة وكان غنياً عن ذلك وبمندوحة واسعة ومعزل رحب عنه ولو طوى مكنون سره واخفى بليات ضميره لاستدام لباس العافية ولم ينهج (١) برد الصيانة ولكان له في لقاء من بلي به ومحادثته ومجالسته امل من الآمال وتعلل كاف وان حبل الغدر ليقطع به والحجة عليه قائمة الا ان يكون مختلطاً في تمييزه او مصاباً في عقله بجليل مافدحه فربما آل ذلك لغدر صحيح واما ان كانت بقية او ثبتت مسكة فهو ظالم في تعرضه مايعلم ان محبوبه يكرهه ويتأذى به هذا غير صفة اهل الحب وسيأتي هذا مفسراً في باب الطاعة ان شاء الله تعالى

﴿ ومن اسباب الكشف وجه ثالث ﴾

وهو عند اهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط وذلك ان يرى المحب من محبوبه غدراً او مللا او كراهة فلا يجد طريق الانتصاف منه الا بما ضرره عليه اعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار وهذا اشد العار واقبح الشنار واقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف وربما كان الكشف من حديث ينتشر واقوايل تفشو وتوافق قلة مبالاة من المحب بذلك ورضى بظهور سره اما لاعجاب واما لاستظهار على بعض مايؤمله وقد رأيت هذا الفعل لبعض اخواني من ابناء القواد وقرأت في بعض اخبار الاعراب ان نساءهم لايقنعن ولايصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ويجاهر ويعلن وينوه بذكرهن ولا ادري ما معنى هذا على انه يذكر عنهن العفاف واي عفاف مع امرأة اذ اقصى مناها وسرورها الشهرة في هذا المعنى

---

(١) نهج الثوب اخلقه

﴿ باب الطاعة ﴾

ومن عجيب مايقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه وصرفه طباعه قسراً الى طباع من يحبه ربما يكون المرء شرس الخلق صعب الشكيمة جموح القياد ماضي العزيمة حمي الانف ابي الخسف فما هو الا ان يتنسم نسيم الحب ويتورط غمره ويعوم في بحره عادت الشراسة ليناً والصعوبة سهلة والمضاء كلالة والحمية استسلاماً وفي ذلك اقول قطعة منها :

فهل للوصال الينا معاد وهل لتصاريف ذا الدهر حد
فقداصبح السيف عبدالقضيب واضحى الغزال الاسير أسد

واقول شعراً منه :

واني وان تعتب لاهون هالك كذائب تبر زل من يدجهبذ
على ان قتلي في هواك لذاذة فيا عجباً من هالك متلذذ

ومنها :

ولو ابصرت انوار وجهك فارس لاغناهم عن هرمزان وموبذ

وربما كان المحبوب كارهاً لاظهار الشكوى متبرماً بسماع الوجد فترى المحب حينئذ يكتم حزنه ويكظم اسفه وينطوي على علته وان الحبيب متجن فعندها يقع الاعتذار عند كل ذنب والاقرار بالجريمة والمرء منها بريء تسليماً لقوله وتركاً لمخالفته واني لاعرف من دهي بمثل هذا فما كان ينفك من توجيه الذنوب نحوه ولاذنب له وايقاع العتاب عليه والسخط وهو نقي الجلد واقول شعراً الى بعض اخواني ويقرب مما نحن فيه وان لم يكن منه :

وقد كنت تلقاني بوجه لقربه تدان وللهجران عن قربه سخط
وما تكره العتب اليسير سجيتي على انه قدعيب في الشعر الوخط

فقد يتعب الانسان في الفكر نفسه　　وقد يحسن الخيلان في الوجه والنقط
تزين اذا قلت ويفحش امرها　　اذا افرطت يوماً وهل يحمد الفرط

ومنه :

اعنه فقد اضحى لفرط همومه　　يبكي اذ القرطاس والحبر والخط

ولايقولن قائل ان صبر المحب على ذلة المحبوب دناءة في النفس فقد اخطأ وقد علمنا ان المحبوب ليس له كفواً ولا نظيراً فيقارض باذاه وليس سبه وجفاءه مما يعير به الانسان ولا يبقى ذكره على الاحقاب ولا يقع ذلك في مجالس الخلفاء ولا في مقاعد الرؤساء فيكون الصبر مستجرة المذلة وضراعة قائدة للاستهانة فقد ترى الانسان يكلف بامته التي يملك رقها ولايحول حائل بينه وبين التعدي عليها فكيف الانتصار منها وسبل الامتعاض من السبب غير هذه انما ذلك بين علية الرجال الذين تحصل انفاسهم وتتبع معاني كلامهم فتوجه لها الوجوه البعيدة لانهم لايوقعونها سدى ولايلقونها هملاً واما المحبوب فصعدة ثابتة وقضيب منأد يجفو ويرضى متى شاء لالمعنى وفي ذلك اقول :

ليس التذلل في الهوى يستنكر　　فالحب فيه يخضع المستكبر
لاتعجبوا من ذلتي في حالة　　قد ذل فيها قبلي المستبصر
ليس الحبيب مماثلاً ومكافياً　　فيكون صبرك ذلة اذ تصبر
تفاحة وقعت فألم وقوعها　　هل قطعها منك انتصاراً يذكر

(خبر) وحدثني ابو دلف الوراق عن مسلمة ابن احمد الفيلسوف المعروف بالمرجيطي انه قال في المسجد الذي بشرقي مقبرة قريش بقرطبة الموازي لدار الوزير ابن عمرو احمد بن محمد بن جدير رحمه الله في هذا المسجد كان مقدم بن الاصفر مريضاً ايام حداثته بعشق بعجيب فتى الوزير ابي عمرو المذكور وكان يترك الصلاة في مسجد مسرور وبها كان سكناه ويقصد في الليل والنهار الى هذا المسجد بسبب عجيب حتى اخذه الحرس غير ما مرة في الليل

في حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة وكان يقعد وينظر منه الى ان كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم اليه فيوجعه ضرباً ويلطم خديه وعينيه فيسر بذاك ويقول هذا والله اقصى امنيتي والآن قرت عيني وكان على هذا زماناً يماشيه قال ابو دلف ولقد حدثنا مسلم بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجيب عندما كان يرى من وجاهة مقدم بن الاصفر وعرض جاهه وعافيته فكانت حال مقدم بن الاصفر هذا قد جلت جداً واختص بالمظفر ابن ابى عامر اختصاصاً شديداً واتصل بوالدته واهله وجرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات وتسهيل وجوه الخير غير قليل مع تصرفه في كل مايتصرف فيه اصحاب السلطان من العناية بالناس وغير ذلك

(خبر) واشنع من هذا انه كانت لسعيد بن منذر بن سعيد صاحب الصلاة في جامع قرطبة ايام الحكم المستنصر بالله رحمه الله جارية يحبها حباً شديداً فعرض عليها ان يعتقها ويتزوجها فقالت له ساخرة به وكان عظيم اللحية ان لحيتك استبشع عظمها فان حذفت منها كان ماترغبه فاعمل الجلمين فيها حتى لطفت ثم دعا بجماعة شهود واشهدهم على عتقها ثم خطبها الى نفسه فلم ترض به وكان في جملة من حضر اخوه حكم بن منذر فقال لمن حضر اعرض عليها اني اخطبها انا ففعل فاجابت اليه فتزوجها في ذلك المجلس بعينه ورضي بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه واجتهاده فانا ادركت سعيداً هذا وقتله البربر يوم دخولهم قرطبة عنوة وانتهابهم اياها وحكم المذكور اخوه هو رأس المعتزلة بالاندلس وكبيرهم واستاذهم ومتكلمهم وناسكهم وهو مع ذلك شاعر طبيب وفقيه وكان اخوه عبد الملك بن منذر متهماً بهذا المذهب ايضاً ولي خطبة الرد ايام الحكم رضي الله عنه وهو الذي صلبه المنصور بن ابى عامر اذ اتهمه هو وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة انهم يبايعون سراً لعبد الرحمن بن عبيد الله بن امير المؤمنين الناصر رضي الله عنهم فقتل عبد الرحمن وصلب عبد الملك بن منذر وبدد شمل جميع

من اتهم وكان ابوهم قاضي القضاة منذر ابن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال ايضاً وكان اخطب النـاس واعلمهم بكل فن واورعهم واكثرهم هزلا ودعابة وحكم المذكور في الحياة في حين كتابتي اليك بهذه الرسالة قد كف بصره وأسن جداً

(خبر) ومن عجيب طاعة المحب لمحبوبه اني اعرف من كان سهر الليالي الكثيرة ولقي الجهد الجـاهد فقطعت قلبه ضروب الوجد ثم ظفر بمن يحب وليس به امتناع ولا عنده دفع فحين رأى منه بعض الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه لاتعففاً ولاتخوفاً لكن توقفاً عند موافقته رضاه ولم يجد من نفسه معينا على اتيان ما لم ير له اليه نشاطاً وهو يجد ما يجد واني لاعرف من فعل هذا الفعل ثم ندم وتعذر ما ظهر من المحبوب فقلت في ذلك :

غافص (١) الفرصة واعلم انها　　كمضي البرق تمضي الفرص
كم امور امكنت امهلها　　هي عندي اذ تولت غصص
بادر الكنز الذي الفيتـه　　وانتهز صبراً كباز يقنص

ولقد عرض مثل هذا بعينه لابي المظفر عبد الرحمن ابن احمد بن محمود صديقنا وانشدته ابياتاً لي فطار بها كل مطار واخذها مني فكان هجيراه

(خبر) ولقد سألني يوماً ابو عبد الله محمد بن كليب من اهل القيروان ايام كوني بالمدينة وكان طويل اللسان جداً متقفاً للسؤال في كل فن فقال لي وقد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه اذا كره من احب لقائي وتجنب قربي فما اصنع قلت ارى ان تسعى في ادخال الروح على نفسك بلقائه وان كره فقال لكني لا ارى ذلك بل اؤثر هواه على هواي ومراده على مرادي واصبر واصبر ولو كان في ذلك الحتف فقلت له اني انما احببته لنفسي وللالتذاذ بصورته

---

(١) غافصة غفاصاً ومغافصة : فاجأه واخذه على غرة منه

فانا اتبع قياسي واقود اصلي واقفو طريقتي في الرغبة في سرورها فقــال لي هذا ظلم من القياس اشد من الموت ماتمني له الموت واعز من النفس مابذلت له النفس فقلت له ان بذلك نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ولو أمكنك الا تبذلها لما بذلتها وتركك لقائه اختياراً منك انت فيه ملوم لاضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها فقال لي انت رجل جدلي ولا جدل في الحب يلتفت اليه فقلت له اذا كان صاحبه مأوفاً (١) فقال واي آفة اعظم من الحب .

﴿ باب المخالفة ﴾

وربما اتبع المحب شهوته وركب رأسه فبلغ شفاءه من محبوبه وتعمد مسرته منه على كل الوجوه سخط او رضي ومن ساعده على الوقت هذا وثبت جنانه واتيحت له الاقدار استوفى لذته جميعها وذهب غمه وانقطع همه ورأى امله وبلغ مرغوبه وقد رأيت من هذه صفته وفي ذلك اقول ابياتاً منها :

اذا انا بلغت نفسي المنى   من رشأ مازال لي ممرضاً
فما أبالي الكره من طاعة   ولا ابالي سخطاً من رضا
اذا وجدت الماء لابد أن   أطفي به مشعل جمر الغضا

﴿ باب العاذل ﴾

وللحب آفات فأولها العاذل والعذال اقسام فأصلهم صديق قد اسقطت مؤونة التحفظ بينك وبينه فعذله افضل من كثير المساعدات وهي من الحض والنهي وفي ذلك زاجر للنفس عجيب وتقوية لطيفة لها عرض وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة ولاسيما ان كان رفيقاً من قوله حسن التواصل الى ما يرد من المعاني

---

(١) الآفة العاهة : وأصابته آفة فهو مئوف

بلفظه عالماً بالاوقات التي يؤكد فيها النهي وبالاحيان التي يزيد فيها الامر والساعات التي يكون فيها وقفاً بين هذين على قدر مايرى من تسهيل العاشق وتوعره وقبوله وعصيانه ثم عاذل زاجر لايفيق ابداً من الملامة وذلك خطب شديد وعند ثقيل ووقع لي مثل هذا وان لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يشبهه وذلك ان ابا السري عمار بن زياد صديقنا اكثر من عذلي على نحو نحوته واعان على بعض من لامني في ذلك الوجه ايضاً وكنت اظن انه سيكون معي مخطئاً كنت او مصيباً لوكيد صداقتي معه وصحيح اخوتي به ولقد رأيت من اشد وجده وعظم كلفه حتى كان العذل احب شيء اليه ليرى العاذل عصيانه ويستلذ مخالفته ويحصل مقاومته اللائمة وغلبته اياه كالملك الهازم لعدوه والمجادل الماهر الغالب لخصمه ويسر بما يقع منه في ذلك وربما كان هذا المستجلب لعذل العاذل باشياء يوردها توجب ابتداء العذل وفي ذلك اقول ابياتاً منها :

احب شيء الى اللوم والعذل ... كي اسمع اسم الذي ذكراه لي امل
كأنني شارب بالعذل صافية ... وباسم مولاي بعد الشرب اتقل

﴿ باب المساعد من الاخوان ﴾

ومن الاسباب المتمناة في الحب ان يهب الله عز وجل للانسان صديقاً مخلصاً لطيف القول بسيط الطول حسن المأخذ دقيق المنفذ متمكن البيان مرهف اللسان جليل الحلم واسع العلم قليل المخالفة عظيم المساعفة شديد الاحتمال صابراً على الادلال جم الموافقة جميل المخالقة مستوي المطابقة محمود الخلائق مكفوف البوائق محتوم المساعدة كارهاً للمباعدة نبيل المداخل مصروف الغوائل غامض المعاني عارفاً بالاماني طيب الاخلاق سري الاعراق مكتوم السر كثير البر صحيح الامانة مأمون الخيانة كريم النفس نافذ الحس. صحيح الحدس مضمون

العون كامل الصون مشهور الوفاء ظاهر الغناء ثابت القريحة مبذول النصيحة مستيقن الوداد سهل الانقياد حسن الاعتقاد صادق اللهجة خفيف المهجة عفيف الطباع رحب الذراع واسع الصدر متخلقاً بالصبر يألف الامحاض ولا يعرف الاعراض يستريح اليه ببلابله ويشاركه في خلوة فقره ويفاوضه في مكتوماته وان فيه للمحب لاعظم الراحات واين هذا فان ظفرت به يداك فشدهما عليه شد الضنين وامسك بهما امساك البخيل وصنه بطارفك وتالدك فمعه يكمل الانس وتنجلي الاحزان ويقصر الزمان وتطيب الاحوال ولن يفقد الانسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلًا ورأياً حسناً ولذلك اتخذ الملوك الوزراء والدخلاء كي يخففوا عنهم بعض ماحملوه من شديد الامور وطوقوه من باهض الاحمال ولكي يستغنوا بآرائهم ويستمدوا بكفايتهم والا فليس في قوة الطبيعة ان تقاوم كل مايرد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها ولقد كان بعض المحبين لعدمه هذه الصفة من الاخوان وقلة ثقته منهم لما جربه من الناس وانه لم يعدم من باح اليه بشيء من سره احد وجهين اما ازراء على رأيه واما اذاعة لسره اقام الوحدة مقام الانس وكان ينفرد في المكان النازح عن الانيس ويناجي الهوى ويكلم الارض ويجد في ذلك راحة كما يجد المريض في التأوه والمحزون في الزفير فان الهموم اذا ترادفت في القلب ضاق بها فان لم ينض منها شيء باللسان ولم يسترح الى الشكوى لم يلبث ان يهلك غماً ويموت اسفاً ومارأيت الاسعاد اكثر منه في النساء فعندهن من المحافظة على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواطيء على طيه اذا اطلعن عليه ماليس عند الرجال ومارأيت امرأة كشفت سر متحابين الا وهي عند النساء ممقوتة مستثقلة مرمية عن قوس واحدة وانه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن مالايوجد عند الفتيات لان الفتيات منهن ربما كشفن ماعلمن على سبيل التغاير وهذا

لايكون الا في الندرة واما العجائز فقد يئسن من انفسهن فانصرف الاشفاق محضاً الى غيرهن

(خبر) واني لاعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على احدى جواريها انها تعشق فتى من اهلها ويعشقها وان بينهما معان مكروهة وقيل لها ان جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جلية امرهـ فاخذتها وكانت غليظة العقوبة فاذاقتها من انواع الضرب والاذاء مالايصبر على مثله جلداء الرجال رجاء ان تبوح لها بشيء مما ذكر لها فلم تفعل البتة

(خبر) واني لاعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان في غير ملكها فعرفته الامر فرام الانكار فلم يتهيأ له ذلك فقالت له مالك ومن ذا عصم فلا تبالي بهذا فوالله لا اطلعت على سركما احداً ابداً ولو امكنتني ان ابتاعها لك من مالي ولو احاط به كله لجعلتها لك في مكان تصل اليها فيه ولا يشعر بذلك احد وانك اترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال واحب اعمالها اليها وارجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة واعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة وما اعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء الا انهن متفرغات البال من كل شيء الا من الجماع ودواعيه والغزل واسبابه والتألف ووجوهه لاشغل لهن غيره ولاخلقن لسواه والرجال مقتسمون في كسب المال وصحبة السلطان وطلب العلم وحياطة العيال ومكابدة الاسفار والصيد وضروب الصناعات ومباشرة الحروب وملاقاة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الارض وهذا كله متحيف للفراغ صارف عن طريق البطل وقرأت في سير ملوك السودان ان الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها ابد الدهر لانهم يقولون ان المرأة اذا بقيت بغير شغل انما تشوق الى الرجال وتحن الى النكاح ولقد شاهدت النساء وعلمت من اسرارهن مالايكاد يعلمه غيري لاني

ربيت في حجورهن ونشأت بين ايديهن ولم اعرف غيرهن ولا جالست الرجال الا وانا في حد الشباب وحين يتقبل وجهي وهن علمنني القرآن وروينني كثيراً من الاشعار ودربنني في الخط ولم يكن وكدي واعمال ذهني مذ اول فهمي وانا في سن الطفولة جداً الا تعرف اسبابهن والبحث عن اخبارهن وتحصيل ذلك وانا لاانسى شيئاً مما اراه منهن واصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسؤ ظن في جهتهن فطرت به فاشرفت من اسبابهن على غير قليل وسيأتي ذلك مفسراً في ابوابه ان شاء الله تعالى

﴿ باب الرقيب ﴾

ومن آفات الحب الرقيب وانه لحمى باطنة وبرسام ملح وفكر مكب والرقباء اقسام فاولهم مثقل بالجلوس غير متعمد في مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه وعزما على اظهار شيء من سرهما والبرح بوجدهما والانفراد بالحديث ولقد يعرض للمحب من القلق بهذه الصفة مالايعرض له مما هو اشد منها وهذا وان كان يزول سريعاً فهو عائق حال دون المراد وقطع متوفر الرجاء

(خبر) ولقد شاهدت يوماً محبين في مكان قد ظنا انهما انفردا فيه وتأهبا للشكوى فاستجلبا ما هما فيه من الخلوة ولم يكن الموضع حمى فلم يلبثا ان طلع عليهما من كانا يستثقلانه فرأى فعدل الي واطال الجلوس معي فلو رأيت الفتي المحب وقد تمازج الاسف البادي على وجهه مع الغضب لرأيت عجباً وفي ذلك اقول قطعة منها :

يطيل جلوساً وهو اثقل جالس ... ويبدي حديثاً لست ارضى فنونه
شمام ورضوى واللكام ويذبل ... ولبنان والضمان والحرب دونه

ثم رقيب قد احس من امرهما بطرف وتوجس من مذهبهما شيئاً فهو يريد ان يستبري حقيقة ذلك فيدمن الجلوس ويطيل القعود ويتخفى بالحركات ويرمق

الوجوه ويحصل الانفاس وهذا اعدا من الحرب واني لاعرف من هم ان يباشر رقيباً هذه صفته وفي ذلك اقول قطعة منها :

مواصل لايغب (١) قصداً اعظم بهذا الوصال غماً
صار وصرنا لفرط ما لا يزول كالاسم والمسما

ثم رقيب على المحبوب فذلك لاحيلة فيه الا بترضية واذا أرضى فذلك غاية اللذة وهذا الرقيب هو الذي ذكرته الشعراء في اشعارها ولقد شاهدت من تلطف في استرضاء رقيب حتى صار الرقيب عليه رقيباً له ومتغافلاً في وقت التغافل ودافعاً عنه وساعياً له ففي ذلك اقول :

ورب رقيب ارقبوه فلم يزل على سيدي عمداً ليبعدني عنه
فما زالت الالطاف تحكم أمره الى ان غدا خوفي له آمناً منه
وكان حساماً سل حتى يهدني فعاد محباً مالتعمته كنه

واقول قطعة منها :

صار حياة وكان سهم ردى وكان سماً فصار درياقاً (٢)

واني لاعرف من رقب على بعض من كان يشفق عليه رقيباً وثق به عند نفسه فكان اعظم الآفة عليه واصل البلاء فيه واما اذا لم يكن في الرقيب حيلة ولا وجد الى ترضيه سبيل فلا طمع الا بالاشارة بالعين همساً وبالحاجب احياناً والتعريض اللطيف بالقول وفي ذلك متعة وبلاغ الى حين يقنع به المشتاق وفي ذلك اقول شعراً اوله :

على سيدي مني رقيب محافظ وفي لمن والاه ليس بناكث

ومنه :

ويقطع اسباب اللبانة في الهوى ويفعل فيها فعل بعض الحوارث

---

(١) يعني لايقل في الزيارة (٢) الدرياق لغة في الترياق

كأن له في قلبه ريبة ترى وفي كل عين مخبر بالأحادث

ومنه :

على كل من حولي رقيان رتبا وقدخصني ذو العرش منهم بثالث

واشنع مايكون الرقيب اذا كان ممن امتحن بالعشق قديماً ودهي به وطالت مدته فيه ثم عري عنه بعد إحكامه لمعانيه فكان راغباً في صيانة من رقب عليه فتبارك الله اي رقيب يأتي منه واي بلاء مصبوب يحل على اهل الهوى من جهته وفي ذلك اقول :

رقيب طالما عرف الغراما وقاسى الوجد وامتنع المناما
ولاقى في الهوى الماً أليما وكاد الحب يورده الحماما
وأتقن حيلة الصب المعنى ولم يضع الاشارة والكلاما
واعقبه التسلي بعد هذا وصار يرى الهوى عاراً وذاما (١)
وصير دون من اهوى رقيباً ليبعد عنه صباً مستهاما
فأي بلية صبت علينا واي مصيبة حلت لماما

ومن طريق معاني الرقباء اني اعرف محبين مذهبهما واحد في حب محبوب واحد بعينه فلعهدي بهما كل واحد منهما رقيب على صاحبه وفي ذلك اقول :

صبان هيانان (٢) في واحد كلاهما عن خدنه منحرف
كالكلب في الآرى(٣) لا يعتلف ولايخلي الغير ان يعتلف

---

(١) الذام العيب . ومنه المثل : لاتعدم الحسناء ذاما

(٢) رجل هيان محب شديد الوجد

(٣) في المختار : مما يضعه الناس في غير موضعه قولهم للمعلف آرى وانما الآرى محبس الدابه

﴿ باب الواشي ﴾

ومن آفات الحب الواشي وهو على ضربين احدهما واش يريد القطع بين المتحابين فقط وان هذا لأفترهما (١) سوأة على انه السم الذعاف والصاب الممقر (٢) والحتف القاصد والبلاء الوارد وربما لم ينجع ترقيشه (٣) واكثر مايكون الواشي فالى المحبوب واما المحب فهيهات :حال الجريض دون القريض . ومنع الحرب من الطرب شغله بما هو مانع له من استماع الواشي وقد علم الوشاة ذلك وانما يقصدون الى الخلي البال الصائل بحوزة الملك المتعتب عند اقل سبب وان للوشاة ضروباً من التنميل فمنها ان يذكر للمحبوب عمن يحب انه غير كاتم للسر وهذا مكان صعب المعاناه بطيء البرء الا ان يوافق معارضاً للمحب في محبته وهذا امر يوجب النفار فلا فرج للمحبوب الا بان تساعده الاقدار بالاطلاع على بعض اسرار من يحب بعد ان يكون المحبوب ذا عقل وله حظ من تمييز ثم يدعه والمطاولة فاذا تكذب عنده نقل الواشي مع ما أظهر من الجفآء والتحفظ ولم يسمع لسره اذاعة علم انه انما زور له الباطل واضمحل ماقام في نفسه ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب وكان المحبوب شديد المراقبة عظيم الكتمان وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت اعلام ذلك في وجهه وحدث في حب لم يكن وركبته رحمة وأظلته فكرة ودهمته حيرة الى ان ضاق صدره وباح بما نقل اليه فلو شاهدت مقام المحب فى اعتذاره لعلمت ان الهوى سلطان مطاع وبناء مشدود الاواخي (٤) وشان نافذ وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف والانكار والتوبة والرمي بالمقاليد فبعد لأي ما صلح

---

(١) يريد اقلهما اساءة واخفهما شرا (٢) أمقر صار مراً (٣) رقش كلامه رقشاً زوقه وزخرفه (٤) كناية عن قوته ومتانة اساسه

الامر بينهما وربما ذكر الواشي ان مايظهر المحب من المحبة ليست بصحيحة وان مذهبه في ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره وهذا فصل وان كان شديداً في النقل فهو ايسر معاناة مما قبله فحالة المحب غير حالة المتلذذ وشواهد الوجد متفرقة بينهما وقد وقع من هذا نبذ كافية في باب الطاعة وربما نقل الواشي ان هوى العاشق مشترك وهذه النار المحرقة والوجع الفاشي في الاعضاء واذا وافق الناقل لهذه المقالة ان يكون المحب فتى حسن الوجه حلو الحركات مرغوباً فيه مائلاً الى اللذات دنياوي الطبع والمحبوب امرأة جليلة القدر سرية المنصب فاقرب الاشياء سعيها في اهلاكه وتصديها لحتفه فكم صريع على هذا السبب وكم من سقي السم فتقطع امعاءه لهذا الوجه وهذه كانت ميتة مروان بن احمد ابن حدير والد احمد المتنسك وموسى وعبد الرحمن المعروفين بابني لبنى من قبل قطر الندى جاريته وفي ذلك اقول محذراً لبعض اخواني قطعة منها :

وهل يأمن النسوان غير مغفل   جهول لاسباب الردى متأرض
وكم وارد حوضاً من الموت اسود   ترشفه من طيب الطعم ابيض

والثاني واش يسعى للقطع بين المحبين لينفرد بالمحبوب ويستأثر به وهذا اشد شيء واقطعه واجزم لاجتهاد الواشي واستفادة جهده ومن الوشاة جانس ثالث وهو واش يسعى بهما جميعاً ويكشف سرهما وهذا لايلتفت اليه اذا كان المحب مساعداً

وفي ذلك اقول :

عجبت لواش ظل يكشف امرنا   وما بسوى اخبارنا يتنفس
وماذا عليه من عنائي ولوعتي   أنا آكل الرمان والولد يضرس

ولا بد أن اورد مايشبه مانحن فيه وان كان خارجاً منه وهو شيء في بيان التنقيل والنمائم فالكلام يدعو بعضه بعضاً كما شرطنا في اول الرسالة ومافي جميع الناس شر من الوشاة وهم النمامون وان النميمة لطبع يدل على نتن الاصل

ورداءة الفرع وفساد الطبع وخبث النشأة ولا بد لصاحبه من الكذب . والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من انواعه وكل نمام كذاب وما احببت كذاباً قط وإني لاسامح في اخاء كل ذي عيب وان كان عظيما واكل امره الى خالقه عز وجل وآخذ ما ظهر من اخلاقه حاشى من اعلمه يكذب فهو عندي ماح لكل محاسنه ومعف على جميع خصاله ومذهب كل مافيه فما ارجو عنده خيراً اصلًا وذلك لان كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه وكل ذأم (١) فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه حاشا الكذب فلا سبيل الى الرجعة عنه ولا الى كتمانه حيث كان وما رأيت قط ولا اخبرني من رأى كذاباً وترك الكذب ولم يعد اليه ولابدأت قط بقطيعة ذي معرفة الا ان اطلع له على الكذب فحينئذ أكون انا القاصد الى مجانبته والمتعرض لمتاركته وهي سمة مارأيتها قط في احد الا وهو مزنون (٢) في نفسه اليه بشق مغموز عليه لعاهة سوء في ذاته نعوذ بالله من الخذلان وقد قال بعض الحكماء آخ من شئت واجتنب ثلاثة . الاحمق فانه يريد ان ينفعك فضرك . والملول فانه اوثق ماتكون به لطول الصحبة وتأكدها خذلك . والكذاب فانه يجني عليك آمن ما كنت فيه من حيث لاتشعر . وحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ حسن العهد من الايمان ﴾ وعنه عليه السلام ﴿ لايؤمن الرجل بالايمان كله حتى يدع الكذب في المزاح ﴾ حدثنا بهما ابوعمر احمد بن محمدعن محمد بن علي بن رفاعة عن علي بن عبد العزيز عن ابي عبيد القاسم ابن سلام عن شيوخه والآخر منهما مسند الى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما والله عز وجل يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا مالاتفعلون ﴾ وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سئل ﴿ هل يكون المؤمن بخيلًا فقال نعم قيل فهل يكون

---

(١) الذأم العيب (٢) مزنون متهم

المؤمن جباناً فقال نعم قيل فهل يكون المؤمن كذاباً قال لا ﴾ حدثناه احمد ابن محمد بن احمد عن احمد بن سعيد عن عبيد الله بن يحيى عن ابيه عن مالك بن انس عن صفوان بن سليم وبهذا الاسناد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ﴿ لاخير في الكذب ﴾ في حديث سئل فيه . وبهذا الاسناد عن مالك انه بلغه عن ابن مسعود انه كان يقول ﴿ لايزال العبد يكذب وينكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب فيكتب عند الله من الكذابين ﴾ وبهذا الاسناد عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال ﴿ عليكم بالصدق فانه يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة واياكم والكذب فانه يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار ﴾ وروى انه أتاه صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ يارسول الله إني استتر بثلاث الخمر والزنا والكذب فمرني ايهما اترك قال اترك الكذب فذهب منه ثم اراد الزنا ففكر فقال آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني ازنيت فان قلت نعم حدني وان قلت لا نقضت العهد فتركته ثم كذلك في الخمر فعاد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله اني تركت الجميع ﴾ فالكذب اصل كل فاحشة وجامع كل سوء وجالب لمقت الله عز وجل . وعن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه قال ﴿ لاايمان لمن لاامانة له ﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال ﴿ كل الخلال يطبع عليها المؤمن الا الخيانة والكذب ﴾ وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ﴿ ثلاث من كن فيه كان منافقاً من اذا وعد اخلف واذا حدث كذب واذا اؤتمن خان ﴾ وهل الكفر الا كذب على الله عز وجل والله الحق وهو يحب الحق وبالحق قامت السموات والارض وما رأيت اخزى من كذاب وما هلكت الدول ولاهلكت الممالك ولاسفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الاستار بغير النمائم والكذب ولأكدت البغضاء والاحن المردية الابنمائم لايحظى صاحبها الا بالمقت والخزي والذل وان ينظر منه الذي ينقل اليه فضلا عن غيره بالعين التي ينظر بها من الكلب

والله عز وجل يقول ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ ويقول جل من قائل ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ فسمى المتقل باسم الفسوق ويقول ﴿ ولاتطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد اثيم عتل بعد ذلك زنيم ﴾ والرسول عليه السلام يقول ﴿ لايدخل الجنة قتات ﴾ (١) ويقول ﴿ وايا كم وقاتل الثلاثة ﴾ يعني المنقل والمتقول اليه والمنقول عنه والاحنف يقول ﴿ الثقة لايبلغ وحق لذي الوجهين الا يكون عند الله وجيهاً ﴾ وهو مايجعله من اخس الطبائع وارذلها ولي الى ابى اسحق ابراهيم بن عيسى الثقفي الشاعر رحمه الله وقد نقل اليه رجل من اخواني عني كذباً على جهة الهزل وكان هذا الشاعر كثير الوهم فاغضبه وصدقه وكلاهما كان لي صديقاً وما كان الناقل اليه من اهل هذه الصفة ولكنه كان المزاح جم الرعاية فكتبت الى ابي اسحاق وكان يقول بالخبر شعراً منه :

ولا تتبدل قالة قد سمعتها　　تقال ولاتدري الصحيح بما تدري
كمن قد اراق الماء للال ان بدا　　فلاقى الردى في الافيح المهمه القفر

وكتبت الى الذي نقل عني شعراً منه :

ولا ترعما في الجد مزحاً كمولج　　فساد علاج النفس طي صلاحها
ومن كان نقل الزور امضى سلاحه　　كمثل الحبارى (٢) تتقي بسلاحها

وكان لي صديق مرة وكثر التدخيل بيني وبينه حتى كدح ذلك فيه واستبان في وجهه وفي لحظه وطبعت على التأني والتربص والمسالمة ما امكنت ووجدت بالانخفاض سبيلًا الى معاودة المدة فكتبت اليه شعراً منه :

ولي في الذي أبدي مرام لو انها　　بدت ما ادعى حسن الرماية وهرز

واقول مخاطباً لعبيد الله بن يحيى الجزيري الذي يحفظ لعمه الرسائل البليغة

---

(١) القت نم الحديث (٢) الحبارى طائر اكبر من الدجاج الاهلي

وكان طبع الكذب قد استولى عليه واستحوذ على عقله وألفه إلفة النفس الامل ويؤكد نقله وكذبه بالايمان المؤكدة المغلظة مجاهراً بهـا اكذب من السراب مستهتراً بالكذب مشغوفاً به لايزال يحدث من قد صح عنده انه لايصدقه فلا يزجره ذلك عن ان يحدث بالكذب

بدا كل ما كتمته بين مخبر   وحال ارتني قبح عقدك بينا
وكم حالة صارت بياناً بحالة   كما تثبت الاحكام بالحبل الزنا

وفيه اقول قطعة منها :

أنم من المرآة في كل مادرى   واقطع بين الناس من قصب الهند
أظن المنايا والزمان تعلما   تحيـله بالقطع بين ذوي الود

وفيه ايضاً اقول من قصيدة طويلة :

واكذب من حسن الظنون حديثه   واقبح من دين وفقر مـلازم
أوامر رب العرش اضيع عنده   وأهون من شكوى الى غير راحم
تجمع فيه كل خزي وفضحة   فلم يبق شتما في المقـال لشاتم
وأثقل من عذل على غير قابل   وابرد برداً من مدينـة سالم
وأبغض من بين وهجر ورقبة   جمعن على حران حيران هائم

وليس من نبه غافلا او نصح صديقاً او حفظ مسلماً او حكى عن فاسق او حدث عن عدو ما لم يكن يكذب ولا يكذب ولاتعمد الضغائن ناقـلا وهل هلك الضعفاء وسقط من لا عقل له الا في قلة المعرفة بالناصح من النمام وهمـا صفتان متقاربتان في الظاهر متفاوتتان في الباطن احداهما دآء والاخرى دوآء والثاقب القريحة لايخفى عليه امرهما لـكن الناقل من كان تنقيله غير مرضي في الديانة ونوى به التشتيت بين الاولياء والتضريب بين الاخوان والتحريش والتوبيش والترقيش فمن خاف إن سلك طريق النصيحة ان يقع في طريق النميمة ولم يثق لنفاذ تمييزه ومضاء تقديره فيما يرده من امور دنياه ومعاملة اهل زمانه فليجعل

دينه دليلًا له وسراجاً يستضيء به فحيثما سلك به سلك وحيثما اوقفه وقف (كذلا له بالنظر رغماً بالاصابة ضمان الفلج والخلاص (كذا) فشارع الشريعة وباعث الرسول عليه السلام ومرتب الاوامر والنواهي اعلم بطريق الحق وادرى بعواقب السلامة ومغبات النجاة من كل ناظر لنفسه بزعمه وباحث بقياسه في ظنه

﴿ باب الوصل ﴾

ومن وجوه العشق الوصل وهو حظ رفيع ومرتبة سرية ودرجة عالية وسعد طالع بل هو الحياة المجددة والعيش السني والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة ولولا ان الدنيا دار ممر ومحنة وكدر والجنة دار جزاء وأمان من المكاره لقلنا ان وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه والفرح الذي لاشائبة فيه ولاحزن معه وكمال الاماني ومنتهى الاراجي ولقد جربت اللذات على تصرفها وادركت الحظوظ على اختلافها فما للدنو من السلطان ولا المال المستفاد ولاالوجود بعد العدم ولا الاوبة بعد طول الغيبة ولا الامن بعد الخوف ولا الترمح على المال من الموقع في النفس ما للوصل لاسيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاة وما اصناف النبات بعد غب القطر ولا اشراق الازاهير بعد اقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج ولا خرير المياه المتخالة لافانين النوار ولا تأنق القصور البيض قد احدقت بها الرياض الخضر بأحسن من وصل حبيب قد رضيت اخلاقه وحمدت غرائزه وتقابلت في الحسن اوصافه وانه لمعجز السنة البلغاء ومقصر فيه بيان الفصحاء وعنده تطيش الالباب وتغرب الافهام وفي ذلك اقول :

وسائل لي عما لي من العمر وقد رأى الشيب في الفودين والعذر
اجبته ساعة لا شيء احسبه عمراً سواها بحكم العقل والنظر
فقال لي كيف ذا بينه لي فاقد اخبرتني اشنع الانباء والخبر

فقلت ان التي قلبي بها علق　　قبلتها قبلة يوماً على خطر
فما اعد ولو طالت سني سوى　　تلك السويعة بالتحقيق من عمري

ومن لذيذ معاني الوصل المواعيد وان للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شغاف القلب وهو ينقسم قسمين احدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه وفيه اقول قطعة منها :

اسامر البدر لما ابطأت وارى　　في نوره من سنا اشراقها عرضا
فبت مشترطاً والود مختلطاً　　والوصل منبسطاً والهجر منقبضا

والثاني انتظار الوعد من المحب ان يزور محبوبه وان لمبادي الوصل وأوائل الاسعاف لتولجاً على الفؤاد ليس لشيء من الاشياء واني لاعرف من كان ممتحناً بهوى في بعض المنازل المصاقبه فكان يصل متى شاء بلا مانع ولاسبيل الى غير النظر والمحادثة زماناً طويلاً ليلاً متى احب ونهاراً الى ان ساعدته الاقدار باجابة ومكنته باسعاد بعد يأسه لطول المدة ولعهدي به قد كاد ان يختلط عقله فرحاً وما كاد يتلاحق كلامه سروراً فقلت في ذلك :

برغبة لو الى ربي دعوت بها　　لكان ذنبي عند الله مغفورا
ولو دعوت بها اسد الفلا لغدا　　إضرارها عن جميع الناس مقصورا
فجاد باللثم لي من بعد منعته　　فاهتاج من لوعتي ما كان مغمورا
كشارب الماء كي يطفي الغليل به　　فغص فانصاع (١) في الاجداث مقبورا

وقلت :

جرى الحب مني مجرى النفس　　واعطيت عيني عنان الفرس
ولي سيد لم يزل نافراً　　وربتما جاد لي في الخلس
فقبلته طالباً راحة　　فزاد أليلا (٢) بقلبي اليبس

---

(١) انصاع رجع (٢) أليلا : أنيناً

وكان فؤادي كنبت هشيم يباس رمى فيه رام قبس

ومنها :

وياجوهر الصين سحقاً فقد غنيت بياقوتة الاندلس

(خبر) واني لاعرف جارية اشتد وجدها بفتى من ابناء الرؤساء وهو لاعلم عنده وكثر غمها وطال أسفها الى ان ضنيت بحبه وهو بغرارة الصبي لايشعر ويمنعها من ابداء امرها اليه الحياء منه لانها كانت بكراً بخاتمها مع الاجلال له عن الهجوم عليه بما لاتدري لعله توافقه فلما تمادى الامر وكان اليقين في النشأة شكت ذلك الى امرأة جزلة الرأي كانت تثق بها لتوليها تربيتها فقالت لها عرضي له بالشعر ففعلت المرة بعد المرة وهو لايأبه في كل هذا واقد كان لقناً ذكياً لم يظن ذلك فيميل الى تفتيش الكلام بوهمه الى أن عيل صبرها وضاق صدرها ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردين ولقد كان يعلم الله عفيفاً متصاوناً بعيداً عن المعاصي فلما حان قيامها عنه بدرت اليه فقبلته في فمه ثم ولت في ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة وهي تتهادى في مشيها كما اقول في ابيات لي :

كأنها حين تخطو في تأودها قضيب نرجسة في الروض مياس

كأنما خلدها في قلب عاشقها ففيه من وقعها حفر ووسواس

كأنما مشيها مشي الحمامة لا كد يعاب ولا بطؤ به باس

فبهت وسقط في يده وفت في عضده ووجد في كبده وعلته وجمة فما هو الا ان غابت عنه ووقع في شرك الردى واشتعلت في قلبه النار وتصعدت انفاسه وترادفت اوجاله وكثر قلقه وطال أرقه فما غمض تلك الليلة عيناً وكان هذا بدء الحب بينهما دهراً الى ان جذت حملتها يد النوى وان هذا لمن مصائد ابليس ودواعي الهوى التي لايقف لها احد الا من عصمه الله عز وجل ومن الناس من يقول ان دوام الوصل يودي بالحب وهذا هجين من القول

انما ذلك لأهل الملل بل كلما زاد وصلًا زاد اتصالا . وعني اخبرك اني ماروبت قط من ماء الوصل ولازادني الا ظمأ وهذا حكم من تداوى برأيه وان رفه عنه سريعاً ولقد بلغت من التمكن بمن احب ابعد الغايات التي لايجد الانسان وراءها مرمى فما وجدتني الا مستزيداً ولقد طال بي ذلك فما احسست بسآمة ولا رهقتني فترة ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت احب فلم اجل خاطري في فن من فنون الوصل الا وجدته مقصراً عن مرادي وغير شاف وجدي ولاقاض اقل لبانة من لباناتي ووجدتني كلما ازددت دنواً ازددت تلوذاً وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي فقلت في ذلك المجلس :

وددت بأن القلب شق بمدية وأدخلت فيه ثم اطبق في صدري
فاصبحت فيه لاتحلين غيره الى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ماحييت فان أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وما في الدنيا حالة تعدل محبين اذا عدما الرقباء وأمنا الوشاة وسلما من البين ورغبا عن الهجر وبعدا عن الملل وفقدا العذال وتوافقا في الاخلاق وتكافيا في المحبة واتاح الله لهما رزقاً داراً وعيشاً قاراً وزماناً هادياً وكان اجتماعهما على ما يرضي الرب من الحال وطالت صحبتهما واتصلت الى وقت حلول الحمام الذي لامرد له ولابد منه هذا عطاء لم يحصل عليه احد وحاجة لم تقض لكل طالب ولولا ان مع هذه الحال الاشفاق من بغتات المقادير المحكمة في غيب الله عز وجل من حلول فراق لم يكتسب واخترام منية في حال الشباب او ما اشبه ذلك لقلت انها حال بعيدة من كل آفة وسليمة من كل داخلة ولقد رأيت من اجتمع له هذا كله الا انه كان دهي فيمن كان يحبه بشراسة الاخلاق ودالة على المحبة فكانا لايتهنيان العيش ولا تطلع الشمس في يوم الا وكان بينهما خلاف فيه وكلاهما كان مطبوعاً بهذا الخلق لثقة كل

واحد منهما بمحبة صاحبه الى ان دنت النوى بينهما فتفرقا بالموت المرتب لهذا العالم وفي ذلك اقول :

كيف أذم النوى واظلمها   وكل اخلاق من احب نوى
قد كان يكفي هوى اضيق به   فكيف اذحل بي نوى وهوى .

وروي عن زياد ابن ابي سفيان رحمه الله انه قال لجلسائه من انعم الناس عيشة قالوا امير المؤمنين فقال (واين مايلقى من قريش قيل فانت قال اين ما القى من الخوارج والثغور قيل فمن ايها الامير) قال رجل مسلم له زوجة مسلمة لها كفاف من العيش قد رضيت به ورضى بها لايعرفنا ولانعرفه . وهل فيما وافق اعجاب المخلوقين وجلا القلوب واستمال الحواس واسهوى النفوس واستولى على الاهواء واقتطع الالباب واختلس العقول مستحسن يعدل اشفاق محب على محبوب ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً وانه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقة الرائقة المعنى لاسيما ان كان هوى يتكتم به فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمحبه وخجلته في الخروج مما وقع فيه بالاعتذار وتوجيهه الى غير وجهه وتحيله في استنباط معنى يقيمه عند جلسائه لرأيت عجباً ولذة مخفية لاتقاومها لذة ومارأيت اجلب للقلوب ولااغوص على حباتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل. وان للمحبين في الوصل من الاعتذار ما اعجز اهل الاذهان الذكية والافكار القوية ولقد رأيت في بعض المرات هذا فقلت :

اذا مزجت الحق بالباطل   جوزت ماشئت على الغافل
وفيهما فرق صحيح له   علامة تبدو الى العاقل
كالتبر ان تمزج به فضة   جازت على كل فتى جاهل
وإن تصادف صائغاً ماهراً   ميز بين المحض والحائل

واني لاعلم فتى وجارية كان يكلف كل واحد منهما بصاحبه فكانا يضطجعان

اذا حضرهما احد وبينهما المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ويلتقي رأساهما وراء المسند. ويقبل كل واحد منهما صاحبه ولا يريان وكأنهما انما يتمددان من الكلال ولقد كان بلغ من تكافيهما في المودة امراً عظيما الى ان كان الفتى المحب ربما استطال عليها وفي ذلك اقول :

ومن اعاجيب الزمان التي　　طمت على السامع والقائل
رغبة مركوب الى راكب　　وذلة المسؤول للسائل
وطول مأسور الى آسر　　وصولة المقتول للقاتل
ما إن سمعنا في الورى قبلها　　خضوع مأمول الى آمل
هل هاهنا وجه تراه سوى　　تواضع المفعول للفاعل

ولقد حدثتني امرأة اثق بها انها شاهدت فتى وجارية كان يجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وجد قد اجتمعا في مكان على طرب وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه فجرها جراً زائداً فقطع ابهامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمة فصرفت يدها وخرقتها واخرجت منها فضلة شد بها ابهامه واما هذا الفعل للمحب فقليل فيما يجب عليه وفرض لازم وشريعة مؤداة وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها

(خبر) وأنا ادركت بنت زكرياء بن يحيى التميمي المعروف بابن برطال وعمها كان قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن يحيى واخوه الوزير القائد الذي كان قتله غالب وقائدين له في الوقعة المشهورة بالثغور وهما مروان بن احمد ابن شهيد ويوسف بن سعيد العكي وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ابن الوزير يحيى ابن اسحق فعاجلته المنايا وهما في اغض عيشهما وانضر سرورهما فبلغ من اسفها عليه ان باتت معه في دثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد به وبوصله ثم لم يفارقها الاسف بعده الى حين موتها وان للوصال المختلس

الذي يخاتل به الرقباء ويتحفظ به من الحضر مثل الضحك المستور والتنحنح وجولان الايدي والضغط بالاجناب والقرص باليد والرجل لموقعاً من النفس شهياً وفي ذلك اقول :

ان للوصل الخفي محلًا ليس للوصل المكين الجلي
لذة تمزجها بارتقاب كمسير في خلال التقي

(خبر) ولقد حدثني ثقة من اخواني جليل من اهل البيوتات انه كان علق في صباه جارية كانت في بعض دور آله وكان ممنوعاً منها فهام عقله بها قال لي فتنزهنا يوماً الى بعض ضياعنا بالسهلة غربي قرطبة مع بعض اعمامي فتمشينا في البساتين وابعدنا عن المنازل وانبسطنا على الانهار الى ان غيمت السماء واقبل الغيث فلم يكن بالحضرة من الغطاء مايكفي الجميع قال فامر عمي ببعض الاغطية فالقى علي وامرها بالاكتنان معي فظن بما شئت من التمكن على اعين الملأ وهم لايشعرون ويالك من جمع كخلاء واحتفال كانفراد قال لي فوالله لا نسيت ذلك اليوم ابداً ولعهدي به وهو يحدثني بهذا الحديث واعضاؤه كلها تضحك وهو يهتز فرحاً على بعد العهد وامتداد الزمان ففي ذلك اقول شعراً منه :

يضحك الروض والسحائب تبكي كحبيب رآه صب معنى

(خبر) ومن بديع الوصل ما حدثني به بعض اخواني انه كان في بعض المنازل المصاقبة له هوى وكان في المنزلين موضع مطلع من احدهما على الآخر فكانت تقف له في ذلك الموضع وكان فيه بعض البعد فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك فاجابته انه ربما أحس من امرنا شيء فوقف لك غيري فسلم عليك فرددت عليه فصح الظن فهذه علامة بيني وبينك فاذا رأيت يداً مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدي فلا تجاوب . وربما استحلي الوصال واتفقت القلوب حتى يقع التخلج في الوصال فلا يلتفت

الى لأثم ولا يستتر من حافظ ولا يبالى بناقل بل العذل حينئذ يغري وفي صفة الوصل اقول شعراً منه :

كم دزت حول الحب حتى لقد   حصلت فيه كحصول الفراش

ومنـه :

تعشو الى الوصل دواعي الهوى   كما سرى نحو سنا النار عاش

ومنـه :

عللني بالوصل من سيـدي   كمثل تعليل الظماء العطاش

ومنـه :

لاتوقف العـين على غاية   فالحسن فيـه مستزيد وباش

واقول من قصيدة لي :

هل لقتيل الحب من وادي   ام هل لعاني الحب من فادي
ام هل لدهري عودة نحوها   كمثـل يوم مر في الوادي
ظللت فيـه سابحاً صادياً   يا عجبـاً للسابح الصادي
ضنيت يا مولاي وجداً فما   تبصرني الحـاظ عوادي
كيف اهتدى الوجد الى غائب   عن اعين الحاضر والبادي
مل مداواتي طبيبي فقـد   يرحمـني للسقم حسادي

﴿ باب الهجر ﴾

ومن آفات الحب ايضاً الهجر وهو على ضروب فأولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر وانه لاحلى من كل وصل ولولا ان ظاهر اللفظ وحكم التسمية يوجب ادخاله في هذا الباب لرجيت به عنه ولأجللته عن تسطيره فيه فحينئذ ترى الحبيب منحرفاً عن محبه مقبلاً بالحديث على غيره معرضاً بمعرض لئلا تلحق ظنه او تسبق استرابته وترى المحب ايضاً كذلك ولكن طبعه له

جاذب ونفسه له صارفة بالرغم فتراه حينئذ منحرفاً كمقبل وساكتاً كناطق وناظراً الى جهة نفسه في غيرها والحاذق الفطن اذا كشف بوهمه عن باطن حديثهما علم ان الخافي غير البادي وما جهر به غير نفس الخبر وانه لمن اشاهد الجالبة للفتن والمناظر المحركة للسواكن الباعثة للخواطر المهيجة للضمائر الجاذبة للفتوة . ولي ابيات في شيء من هذا اوردتها وان كان فيها غير هذا المعنى على ماشرطنا منها :

يلوم ابن العباس جهلًا بطبعه كما عير الحوت النعامة بالصدى

ومنها :

وكم صاحب اكرمته غير طائع ولا مكره الا لامر تعمدا
وما كان ذاك البر الا لغيره كما نصبوا للطير بالحب مصيدا

واقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحكم وفنون من الآداب الطبيعية

وسراء احشائي لمن انا مؤثر وسراء ابنائي لمن احبب
فقد يشرب الصاب الكريه لعلة ويترك صفو الشهد وهو محبب
واعدل في اجهاد نفسي في الذي أريد. واني فيه اشقى واتعب
هل اللؤلؤ المكنون والدر كله رأيت بغير الغوص في البحر يطلب
واصرف نفسي عن وجوه طباعها اذا في سواها صح ما انا ارغب
كما نسخ الله الشرائع قبلنا بما هو ادنى للصلاح واقرب
والقى سجايا كل خلق بمثلها ونعت سجاياي الصحيح المهذب
كما صار لون الماء لون انائه وفي الاصل لون الماء ابيض معجب

ومنها :

اقت دوى ودي مقام طبائعي حياتي بها والموت منهن يرهب

ومنها :

وما انا ممن تطبيه بشاشة ولا يقتضي مافي ضميري التجنب

أزيد نفاراً عند ذلك باطنـاً ... وفي ظاهري اهل وسهل ومرحب
فاني رأيت الحرب يعلو اشتعالها ... ومبدؤها في اول الامر ملعب
وللحية الرقشاء وشى ولونهـا ... عجيب وتحت الوشي سم مركب
وإن فرند السيف اعجب منظراً ... وفيه اذا هز الحسام المذرب
وأجعل ذل النفس عزة اهلها ... اذا هي نالت مابها فيه مذهب
فقديضع الانسان في الترب وجهه ... ليأتي غداً وهو المصون المقرب
فذل يسوق العز اجود للفتى ... من العز يتلوه من الذل مركب
وكم مأكل اربت عواقب غيه ... ورب طوى بالخصب آت ومعقب
وماذاق عزالنفس من لا يذلها ... ولاالتذ طعم الروح من ليس ينصب
ورودك بعد الماء من بعد ظمأة ... ألذ من العل المكين واعذب

ومنهـا :

وفي كل مخلوق تراه تفاضل ... فرد طيباً ان لم يتح لك اطيب
ولا ترض ورد الريق الاضرورة ... اذا لم يكن في الارض حاشاه مشرب
ولا تقربن ملح الميـاه فانها ... شجى والصدى بالحر اولى واوجب

ومنهـا :

فخذ من جراها ماتيسر واقتنع ... ولا تك مشغولا بمن هو يغلب
فما لك شرط عندها لا ولا يد ... ولا هي ان حصلت ام ولا اب

ومنهـا :

ولا تيأسن ممـا ينال بحيلة ... وان بعدت فالامر ينأى ويصعب
ولاتأمن الاظلام فالفجر طالع ... ولاتلتبس بالضوء فالشمس تغرب

ومنهـا :

ألح فان الماء يكدح في الصفا ... اذا طال ما يأتي عليه ويذهب
وكثر ولا تفشل وقلل كثير ما ... فعلت فمـاء المزن جم وينصب

فلو يتغذى المرء بالسم قاته وقام له منه غذاء مجرب

ثم هجر يوجبه التذلل وهو ألذ من كثير الوصال ولذلك لايكون الا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه واستحكام البصيرة في صحة عقده فحينئذ يظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر محبه وذلك لئلا يصفو الدهر البتة وليأسف المحب ان كان مفرط العشق عند ذلك لا لما حل لكن مخافة ان يترقى الامر الى ماهو اجل يكون ذلك الهجر سبباً الى غيره او خوفاً من آفة حادث ملل ولقد عرض لي في الصبي هجر مع بعض من كنت آلف على هذه الصفة وهو لايلبث ان يضمحل ثم يعود فلما كثر ذلك قلت على سبيل المزاح شعراً بديهياً ختمت كل بيت منه بقسم من اول قصيدة طرفة بن العبد المعلقة وهي التي قرأناها مشروحة على ابي سعيد الفتى الجعفري عن ابي بكر المقريء عن ابي جعفر النحاس رحمهم الله في المسجد الجامع بقرطبة وهي :

تذكرت وداً للحبيب كأنه لخولة اطلال ببرقة ثهمد
وعهدي بعهد كان لي منه ثابت يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفت به لاموقناً برجوعه ولا آيساً ابكي وابكي الى الغد
الى ان أطال الناس عذلي واكثروا يقولون لاتهلك اسى وتجلد
كأن فنون السخط ممن احبه خلايا سفين بالنواصف من دد
كأن انقلاب الهجر والوصل مركب يجور به الملاح طوراً ويهتدي
فوقت رضى يتلوه وقت تسخط كما قسم الترب المفائل (١) باليد
ويبسم نحوي وهو غضبان معرض مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد

---

(١) فئال ككتاب لعبة للصبيان يخبؤن الشيء في التراب ثم يقتسمونه ويقولون في ايهما هو واللاعب بها مفائل

ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب وهذا فيه بعض الشدة لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل ما مضى فان لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لاتعدلها لذة وموقعاً من الروح لايفوقه شيء من اسباب الدنيا وهل شاهد مشاهد او رأت عين او قام في فكر الذ واشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب وبعد عنه كل بغيض وغاب عنه كل واش واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلًا وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثم مانع من الاطالة للحديث فابتدأ المحب في الاعتذار والخضوع والتذلل والادلة بحجته الواضحة من الادلال والاذلال والتذمم بما سلف فطوراً يدلي ببراءته وطوراً يرد بالعفو ويستدعي المغفرة ويقر بالذنب ولاذنب له والمحبوب في كل ذلك ناظر الى الارض يسارقه اللحظ الخفي وربما ادامه فيه ثم يبسم مخفياً لتبسمه وذلك علامة الرضى ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر ويقبل القول وامتحت ذنوب النقل وذهب آثار السخط ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور ولو كان فكيف ولاذنب وختما امرهما بالوصل الممكن وسقوط العتاب والاسعاد وتفرقا على هذا . هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديده الالسنة ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء وانبساط مدبري الدول فما رأيت اشد تبجحاً ولااعظم سروراً بما هو فيه من محب ايقن ان قلب محبوبه عنده ووثق بميله اليه وصحة مودته له وحضرت مقام المعتذرين بين ايدي السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين فما رأيت اذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء ولقد امتحنت الامرين وكنت في الحالة الاولى اشد من الحديد وانفذ من السيف لااجيب الى الدنية ولا اساعد على الخضوع وفي الثانية اذل من الرداء والين من القطن ابادر الى اقصى غايات التذلل لونفع واغتنم

قرصة الخضوع لو نجع واتحلل بلساني واغوص على دقائق المعاني ببياني وافنن القول فنوناً واتصدى لـكل مايوجب الترضي

والتجني بعض عوارض الهجران وهو يقع في اول الحب وآخره فهو في اوله علامة لصحة المحبة وفي آخره علامة لفتورها وباب للسلو

(خبر) واذكر في مثل هذا اني كنت مجتازاً في بعض الايام بقرطبة في مقبرة باب عامر في لمة (١) من الطلاب واصحاب الحديث ونحن نريد مجلس الشيخ ابى القاسم عبد الرحمن بن ابى يزيد المصري بالرصافة استاذي رضي الله عنه ومعنا ابو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوى من اهل سبتة وكان شاعراً مفلقاً وهو ينشد لنفسه في صفة متجن معهود ابياتاً له منها :

سريع الى ظهر الطريق وانه الى نقض اسباب المودة يسرع(٢)
يطول علينـا ان نرقع وده اذا كانـ في ترقيعه يتقطع

فوافق انشاد البيت الاول من هاذين البيتين خطور ابى الحسين بن علي الفاسي رحمه الله وهو يؤم ايضاً مجلس بن ابي يزيد فسمعه فتبسم رحمه الله نحونا وطوانا ماشياً وهو يقول بل الى عقد المودة انـ شاء الله فهو اولى هذا على جد ابي الحسين رحمه الله وفضله وتقربه وبراءته ونسكه وزهده وعلمه فقلت في ذلك :

دع عنك نقض مودتي متعمداً واعقد حبال وصالنا يا ظالم
ولترجعن أردته او لم ترد كرهاً لما قال الفقيه العـالم

ويقع فيه الهجر والعتاب ولعمري ان فيه اذا كان قليلًا للذة واما اذا تفـاقم فهو فأل غير محمود وأمارة وبيئة المصدر وعلامة سوء وهي بجملة الامر مطية الهجران ورائد الصريمة ونتيجة التجني وعنوان الثقل ورسول الانفصال

---

(١) اللمة بالضم : الاصحاب (٢) لعل الاصل أسرع

وداعية القلى ومقدمة الصد وانما يستحسن اذا لطف وكان اصله الاشفاق وفي ذلك اقول :

اعلك بعد عتبك ان تجودا   بما منه عتبت وان تزيدا
فكم يوم رأينا فيه صحواً   وأسمعنا بآخره الرعودا
وعاد الصحو بعد كما علمنا   وانت كذاك نرجو ان تعودا

وكان سبب قولي هذه الابيات عتاب وقع في يوم هذه صفته من ايام الربيع فقلتها في ذلك الوقت وكان لي في بعض الزمن صديقان وكانا اخوين فغابا في سفر ثم قدما وقد أصابني رمد فتأخرا عن عيادتي فكتبت اليهما والمخاطبة للاكبر منهما شعراً منه :

وكنت اعدد ايضاً على   أخيك بمؤلمة السامع
ولكن اذا الدجن غطى ذكا   فما الظن بالقمر الطالع

ثم هجر يوجبه الوشاة وقد تقدم القول فيهم وفيما يتولد من دبيب عقاربهم وربما كان سبباً المقاطعة البتة

ثم هجر الملل والملل من الاخلاق المطبوعة في الانسان واحرى لمن دهي به الا يصفو له صديق ولايصح له اخاء ولايثبت على عهد ولايصبر على الف ولا تطول مساعدته لمحب ولا يعتقد منه ود ولا بغض وأولى الامور بالناس ان لا يغروه منهم وان يفروا عن صحبته ولقائه فلن يظفروا (١) منه بطائل ولذلك ابعدنا هذه الصفة عن المحبين وجعلناها في المحبوبين فهم بالجملة اهل التجني والتظني والتعرض للمقاطعة واما من تزيا باسم الحب وهو ملول فليس منهم وحقه ان يهرج مذاقه وينفى عن اهل هذه الصفة ولا يدخل في جملتهم وما رأيت قط هذه الصفة اشد تغلباً منها على ابي عامر محمد بن عامر

---

(١) في الاصل يخلوا

رحمه الله فلو وصف لي واصف بعض ما علمته منه لما صدقته واهل هذا الطبع اسرع الخلق محبة واقلهم صبرا على المحبوب وعلى المكروه وبالضد (١) وانقلابهم على الود على قدر تسرعهم اليه فلا تثق بملول ولا تشغل به نفسك ولا تعنها بالرجاء في وفائه فان دفعت الى محبته ضرورة فعده ابن ساعته واستأنفه كل حين من احيانه بحسب ماتراه من تلونه وقابله بما يشاكله ولقد كان ابو عامر المحدث عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها ويحيق به من الاغتمام والهم مايكاد ان يأتي عليه حتى يملكها ولو حال دون ذلك شوك القتاد فاذا ايقن بتصيرها (٢) اليه عادت المحبة نفاراً وذلك الانس شروداً والقلق اليها قلقاً منها ونزاعه نحوها نزاعاً عنها فيبيعها بأوكس الاثمان هذا كان دأبه حتى اتلف فيما ذكرنا من عشرات الوف الدنانير عدداً عظيما وكان رحمه الله مع هـذا من اهل الادب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض واما حسن وجهه وكمال صورته فشيء تقف الحدود عنه وتكل الاوهام عن وصف اقله ولايتعاطى احد وصفه ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ويتعمدون الخطور على باب داره في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجانب الشرقي بقرطبة الى الدرب المتصل بقصر الزاهرة وفي هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا لالشيء الا للنظر منه . ولقد مات من محبته جوار كن علقن اوهامهن به ورثين له فخانهن مما املنه منه فصرن رهائن البلى وقتلتهن الوحـدة . وانا اعرف جارية منهن كانت تسمى عفراء عهدي بها لاتتستر بمحبته حيث ما جلست ولاتجف دموعها وكانت قد تصيرت من داره الى البركات الخيال صاحب القيان . ولقد كان رحمه الله يخبرني عن

---

(١) لعل الصواب : وعلى المكروه والصد (٢) لم نر في اللغة تصير مشدداً فلعل الاصل بمصيرها

نفسه انه يمل اسمه فضلاً عن غير ذلك واما اخوانه فانه تبـدل بهم في عمره على قصره مراراً وكان لايثبت على زي واحد كأبي براقش حيناً يكون في ملابس الملوك وحيناً في ملابس الفتـاك فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته على اي وجه كان ألايستفرغ عامة جهده في محبته وان يقيم اليأس من دوامه خصماً لنفسه فاذا لاحت له مخايل الملل قاطعه اياماً حتى ينشط باله ويبعد به عنه ثم يعاوده فربما دامت المودة مع هذا وفي ذلك اقول :

لاترجون ملولاً ليس الملول بعده
ود الملول فدعه عارية مسترده

ومن الهجر ضرب يكون متوليه المحب وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه والميل عنه الى غيره او لثقيل يلازمه فيرى الموت ويتجرع غصص الأسى والعض على نقيف (١) الحنظل أهون من رؤية مايكره فينقطع وكبده تتقطع وفي ذلك اقول :

هجرت من اهواه لاعن قلى يا عجباً للعاشق الهـاجر
لكن عيني لم تطق نظرة الى محيا الرشأ الغـادر
فالموت احلى مطعماً من هوى يـباح للوارد والصادر
وفي الفؤاد النـار مذكية فاعجب لصب جزع صابر
وقد اباح الله في دينـه تقية المـأسور للاسر
وقد احل الكفر خوف الردى حتى ترى المؤمن كالكافر

(خبر) ومن عجيب مايكون فيها وشنيعه اني اعرف من هام قلبه بتناء عنه نافر منه فقاسى الوجد زمناً طويلاً ثم سنحت له الايام بسانحة عجيبة من الوصل

---

(١) في الاصل ثقيف ، ولعل الاصح نقيف بمعنى منقوف من نقف الحنظل اذا شقه عن حبه كما في القاموس

أشرف بها على بلوغ أمله فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه الا كهؤلاء عاد الهجر والبعد الى اكثر ما كان قبل فقلت في ذلك :

كانت الى دهري لي حاجة مقرونة في البعد بالمشتري
فساقها باللطف حتى اذا كانت من القرب على محجر
أبعدها عني فعادت كأن لم تبـد للعين ولم تظهر

وقلت :

دنا أملي حتى مددت لأخـذه يداً فانثنى نحو المجرة راحـلا
فاصبحت لاارجو وقد كنت موقناً وأضحى مع الشعرى وقد كان حاصلا
وقد كنت محسوداً فاصبحت حاسداً وقد كنت مأمولا فاصبحت آملا
كذا الدهر في كراته وانتقـاله فلا يأمن الدهر من كان عاقلا

ثم هجر القلى وهنا ضلت الاساطير ونفدت الحيل وعظم البلاء وهو الذي خلى العقول ذواهل فمن دهي بهـذه الداهية فليتصد لمحبوب محبوبه وليتعمد مايعرف انه يستحسنه ويجب ان يجتنب مايدري انه يكرهه فربما عطفه ذلك عليه ان كان المحبوب ممن يدري قدر الموافقة والرغبة فيه واما من لم يعلم قدر هذا فلا طمع في استصرافه بل حسناتك عنده ذنوب فان لم يقـدر المرء على استصرافه فليتعمد الساوان وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان ويسعى في نيل رغبته على اي وجه أمكنه ولقد رأيت من هذه صنته وفي ذلك اقول قطعة اولها :

دهيت بمن لو ادفع الموت دونه لقـال اذاً ياليتني في المقابر

ومنهـا :

ولا ذنب لي اذ صرت احدو ركائبي الى الورد والدنيا تسيء مصادري
وماذا على الشمس المنيرة بالضحى اذا قصرت عنها ضعاف البصائر

واقول :

ما أقبح الهجر بعد وصل   واحسن الوصل بعد هجر
كالوفر تحويه بعد فقر   والفقر يأتيك بعد وفر

واقول :

معهود اخلاقك قسمان   والدهر فيك اليوم صنفان
فانك النعمان فيما مضى   وكان للنعمان يومان
يوم نعيم فيه سعد الورى   ويوم بأساء وعدوان
فيوم نعماك لغيري ويو   مي منك ذو بؤس وهجران
أليس حبي لك مستأهلا   لان تجازيه باحسان

واقول قطعة منها :

يا من جميع الحسن منتظم   فيه كنظم الدر في العقد
مابال حتفي منك يطرقني   قصداً ووجهك طالع السعد

واقول قصيدة اولها :

أساعة توديعك ام ساعة الحشر   وليلة بيني منك ام ليلة النشر
وهجرك تعذيب الموحد ينقضي   ويرجو التلاقي ام عذاب ذوي الكفر

ومنهـا :

سقى الله اياماً مضت ولياليـا   تحاكي لنا النيلوفر الغض في النشر
فاوراقه الايام حسناً وبهجـة   واوسطه الليـل المقصر للعمر
لهونا بهـا في غمرة وتألف   تمر فلا تدري وتأتي فلا تدري
فاعقبنا منه زمان كأنه   ولاشك حسن العقد اعقب بالغدر

ومنهـا :

فلا تيأسي يانفس عل زماننا   يعود بوجه مقبل غير مدبر
كما صرف الرحمن ملك امية   اليهم ولوذي بالتجمل والصبر

وفي هذه القصيدة امدح ابا بكر هشام بن محمد اخا امير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى رحمه الله :

فأقول :

اليس يحيط الروح فينا بكل ما دنا وتناءى وهو في حجب الصدر
كذا الدهر جسم وهو في الدهر روحه محيط بما فيه وان شئت فاستقر(١)

ومنهـا :

إباوتها تهدى اليـه ومنة تقبلهـا منهم يقاوم بالشكر
كذا كل نهر في البلاد وان طمت غزارته ينصب في لجج البحر

﴿ باب الوفاء ﴾

ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الاخلاق في الحب وغـيره الوفاء وانه لمن اقوى الدلائل واوضح البراهين على طيب الاصل وشرف العنصر وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات وفي ذلك اقول قطعة منها :

أفعال كل امرء تنبي بعنصره والعين تغنيك عن ان تطلب الاثرا

ومنهـا :

وهل ترى قط دفلى انبتت عنباً اوتذخر النحل في اوكارها الصبرا

واول مراتب الوفاء ان يفي الانسان لمن يفي له وهذا فرض لازم وحق واجب على المحب والمحبوب لا يحول عنه الا خبيث المحتد لاخـلاق له ولا خير عنده ولولا ان رسالتنا هذه لم نقصد بها الـكلام في اخلاق الانسان(٢) وصفاته المطبوعة والتطبع بهـا وما يزيد من المطبوع بالتطبع وما يضمحل من

---

(١) في الاصل : فاستبرى ولا معنى له فلعل الصواب : فاستقر امر من الاستقراء (٢) في الاصل : النساء

التطبع بعدم الطبع لزدت في هذا المكان مايجب ان يوضع في مثله ولكننا انما قصدنا التكلم فيما رغبته من امر الحب فقط وهذا امر كان يطول جداً اذ الكلام فيه يتفنن كثيراً

(خبر) ومن ارفع (١) ماشاهدته من الوفاء في هذا المعنى واهوله شأناً قصة رأيتها عياناً وهو اني اعرف من رضي بقطيعة محبوبه واعز الناس عليه ومن كان الموت عنده احلى من هجر ساعة في جنب طيه لسر اودعه والتزم محبوبه يميناً غليظة الا يكلمه ابداً ولايكون بينهما خبر او يفضح اليه ذلك السر على ان صاحب ذلك السر كان غائباً فابى من ذلك وتمادى هو على كتمانه والثاني على هجرانه الى ان فرقت بينهما الايام

ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر وهي للمحب دون المحبوب وليس للمحبوب هاهنا طريق ولا يلزمه ذلك وهي خطة لا يطيقها الا جلد قوي واسع الصدر حر النفس عظيم الحلم جليل الصبر حصيف العقل (٢) ماجد الخلق سالم النية ومن قابل الغدر بمثله فليس بمستأهل للملامة ولكن الحال التي قدمنا تفوقها جداً وتفوتها بعداً . وغاية الوفاء في هذه الحال ترك مكافاة الاذى بمثله والكف عن سيء المعارضة بالفعل والقول والتأني في جر حبل الصحبة ما امكن ورجيت الالفة وطمع في الرجعة ولاحت للعودة ادنى مخيلة وشيمت منها (٣) اقل بارقة او توجس منها ايسر علامة فاذا وقع اليأس واستحكم الغيظ حينئذ والسلامة من غرك والامن من ضرك والنجاة من اذاك وان يكون ذكر ماسلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما ذقع فرعي الاذمة حق وكيد على اهل العقول والحنين الى مامضى والاينسى ماقد فرغ منه وفنيت مدته اثبت الدلائل على

---

(١) في الاصل : اشنع ، وماصححناه اكثر تلاؤماً مع قوله سابقاً « واول مراتب الوفاء » (٢) في الاصل : خصيف العقدة (٣) في الاصل : بها

صحة الوفاء وهذه الصفة حسنة جداً وواجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم على اي حال كانت

(خبر) ولعهدي برجل من صفوة اخواني قد علق بجارية فتأكد الود بينهما ثم غدرت بعهده ونقضت وده وشاع خبرهما فوجد لذلك وجداً شديداً .

(خبر) وكان لي مرة صديق ففسدت نيته بعد وكيد مودة لايكفر بمثلها وكان (١) علم كل واحد منا سر صاحبه وسقطت المؤونة فلما تغير علي افشى كل ما اطلع لي عليه مما (٢) كنت اطلعت منه على اضعافه ثم اتصل به ان قوله في قد بلغني فجزع لذلك وخشي ان اقارضه على قبيح فعله وبلغني ذلك فكتبت اليه شعراً أؤنسه فيه وأعلمه اني لا اقارضه

(خبر) ومما يدخل في هذا الدرج وان كان ليس منه ولاهـذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب ولكنه شبيه له على ماقد ذكرنا وشرطنا وذلك ان محمد بن وليد بن مكسير الكاتب كان متصلاً بي ومنقطعاً الي ايام وزارة ابي رحمة الله عليه فلما وقع بقرطبة ما وقع وتغيرت أحوال خرج الى بعض النواحي فاتصل بصاحبها فعرض جاهه وحدثت له وجاهة وحال حسنة فحللت انا تلك الناحية في بعض رحلتي فلم يوفني حقي بل ثقل عليه مكاني وأساء معاملتي وصحبتي وكلفته في خلال ذلك حاجة لم يقم فيها ولا قعد واشتغل عنها بما ليس في مثله شغل فكتبت اليه شعراً اتانبه فيه فجاوبني مستعتباً وعلى دلك فما كلفته حاجة بعدها ومما لي في هذا المعنى وليس من جنس البـاب ولكنه يشبهه أبياتاً قلتها منها :

وليس يحمد كتمان لمكتتم   لكن كتمك ما افشاه مفتشيه

---

(١) في الاصل : وان علم (٢) في الاصل : ما

كالجود بالوفر اسنى مايكون اذا   قل الوجود له او ضن معطيه

ثم مرتبة ثالثة وهي الوفاء مع اليأس البات وبعد حلول المنايا وفجاءات المنون وان الوفاء في هذه الحالة لاجل واحسن منه في الحياة ومع رجاء اللقاء

(خبر) ولقد حدثتني امرأة اثق بها أنها رأت في دار محمد بن احمد بن وهب المعروف بابن الركيزة من ولد بدر الداخل مع الامام عبد الرحمن بن معاوية رضي الله عنه جارية رائعة جميلة كان لها مولى فجاءته المنية فبيعت في تركته فأبت ان ترضى بالرجال بعده وما جامعها رجل الى ان لقيت الله عز وجل وكانت تحسن الغناء فانكرت علمها به ورضيت بالخدمة والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة وفاء منها لمن قد دثر وواراته الارض والتأمت عليه الصفائح ولقد رامها سيدها المذكور ان يضمها الى فراشه مع سائر جواريه ويخرجها مما هي فيه فأبت فضربها غير مرة وأوقع بها الادب فصبرت على ذلك كله فاقامت على امتناعها وان هذا من الوفاء غريب جداً واعلم ان الوفاء على المحب اوجب منه على المحبوب وشرطه له الزم لان المحب هو البادي باللصوق والتعرض لعقد الاذمة (١) والقاصد لتأكيد المودة والمستدعي صحة العشرة والاول في عدد طلاب (٢) الاصفياء والسابق في ابتغاء اللذة باكتساب الخلة والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال وخطمها باشد خطام فمن قسره على هذا كله ان لم يرد إتمامه ؟ ومن اجبره على استجلاب المقة ان لم ينوِ ختمها بالوفاء لمن اراده عليها ؟ والمحبوب انما هو مجلوب اليه ومقصود نحوه ومخير في القبول او الترك فان قبل فغاية الرجاء وان ابى فغير مستحق للذم وليس التعرض للوصل والالحاح فيه والتأني لكل مايستجلب به من الموافقة وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء في شيء فحظ نفسه اراد

---

(١) الذمام : الحق . الحرمة والجمع أذمه (٢) في الاصل : طالب

الطالب ، وفي سروزه سعي ، وله اختطب ، والحب يدعوه ويحدوه على ذلك شاء او ابى وانما يحمد الوفاء ممن يقدر على تركه

وللوفاء شروط على المحبين لازمة . فأولها ان يحفظ عهد محبوبه ويرعى غيبته ويستوي علانيته وسريرته ويطوي شره وينشر خيره ويغطي على عيوبه ويحسن افعاله ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ويرضى بما حمله ولايكثر عليه بما ينفر منه وألا يكون طلعة ثؤوباً ولاملة طروقاً وعلى المحبوب (١) ان ساواه في المحبة مثل ذلك وان كان دونه فيها فليس للمحب ان يكلفه الصعود الى مرتبته ولا له الاستشاطة عليه بان يسومه الاستواء معه في درجته وبحسبه منه حينئذ كتمان خبره والا يقابله بما يكره ولا يجيفه به وان كانت الثالثة وهي السلامة مما يلقى بالجملة فليقنع بما وجد ولياخذ من الامر ما استدف (٢) ولا يطلب شرطاً ولا يقترح حقداً وانما له ماسنح بجده او ما حان بكده واعلم انه لايستبين قبح الفعل لاهله ولذلك يتضاعف قبحه عند من ليس من ذويه . ولا اقول قولي هذا ممتدحاً ولكن آخذاً بادب الله عز وجل ﴿ واما بنعمة ربك فحدث ﴾ لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت الي بلقية واحدة ووهبني من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثته ساعة حظاً (٣) ؟ انا له شاكر وحامد ومنه مستمد ومستزيد وما شيء اثقل علي من الغدر ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في اضرار من بيني وبينه اقل ذمام وان عظمت جريرته وكثرت الي ذنوبه ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت على السوءى الا بالحسنى والحمد لله على ذلك كثيراً وبالوفاء افتخر في كلمة طويلة ذكرت فيها مامضنا من النكبات ودهمنا من الحل والترحال والتحول في الآفاق اولها :

---

(١) في الاصل : المحب (٢) وخذ ما استدف لك اي ما امكن وتسهل .
(٣) في الاصل خطأ

ولى فولى جميل الصبر يتبعه　　وصرح الدمع ماتخفيه أضلعه
جسم ملول وقلب آلف فاذا　　حل الفراق عليه فهو موجعه
لم تستقر به دار ولا وطن　　ولا تدفأ منه قط مضجعه
كأنما صيغ من زهو السحاب فما　　تزال ريح الى الآفاق تدفعه
كأنما هو توحيد تضيق به　　نفس انكفور فتأبى حين تودعه
اوكوكب قاطع في الافق منتقل　　فالسير يغربه حيناً ويطلعه
أظنه لو جزته او تساعده　　ألقت عليه انهمال الدمع يتبعه

وبالوفاء ايضاً افتخر في قصيدة لي طويله اوردتها وان كان اكثرها ليس من جنس الكتاب فكان سبب قولي لها ان قوماً من مخالفي شرقوا بي فأساءوا العتب في وجهي وقذفوني بأني اعضد الباطل بحجتي عجزاً منهم عن مقاومة ما اوردته من نصر الحق واهله وحسداً لي فقلت وخاطبت بقصيدتي بعض اخواني وكان ذا فهم منها :

وخذني عصا موسى وهات جميعهم　　ولو انهم حيات ضال نضانض

ومنها :

يريغون في عيني عجائب جمة　　وقد يتمنى الليث والليث رابض

ومنها :

ويرجون ما لايبلغون كمثل ما　　يرجي محالا في الامام الروافض

ومنها :

ولو جلدي في كل قلب ومهجة　　لما أثرت فيها العيون المرائض
أبت عن دنيء الوصف ضربة لازم　　كما ابت الفعل الحروف الخوافض

ومنها :

ورأيي له في كل ماغاب مسلك　　كما تسلك الجسم العروق النوابض
يبين مدب النمل في غير مشكل　　ويستر عنهم لفيول المرابض

﴿ باب الغدر ﴾

وكما ان الوفاء من سري النعوت ونبيل الصفات فكذلك الغدر من ذميمها ومكروهها وانما يسمى غدراً من البادي به واما المقارض بالغدر على مثله وان استوى معه في حقيقة الفعل فليس بغدر ولا هو معيباً بذلك والله عز وجل يقول ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ وقد علمنا ان الثانية ليست بسيئة ولكن لما جانست الاولى في الشبه اوقع عليها مثل اسمها وسيأتي هذا مفسراً في باب السلو ان شاء الله ولكثرة وجود الغدر في المحبوب استغرب الوفاء منه فصار قليله الواقع منهم يقاوم الكثير الموجود في سواهم وفي ذلك اقول :

قليل وفاء من يهوى يجل وعظم وفاء من يهوى يقل
فنادرة الجبان اجل مما يجيء به الشجاع المستقل

ومن قبيح الغدر ان يكون للمحب سفير الى محبوبه يستريح اليه باسراره فيسعى حتى يقلبه (١) الى نفسه ويستأثر به دونه وفيه اقول :

اقمت سفيراً قاصداً في مطالبي وثقت به جهلا فضرب بيننا
وحل عرى ودي واثبت وده وابعد عني كل ما كان ممكنا
فصرت شهيداً بعدما كنت مشهداً واصبحت ضيفاً بعدما كان ضيفنا

(خبر) ولقد حدثني القاضي يونس بن عبد الله قال أذكر في الصبي جارية في بعض السدد يهواها فتى من اهل الادب من ابناء الملوك وتهواه ويتراسلان وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتى من اترابه كان يصل اليها فلما عرضت الجارية للبيع اراد الذي كان يحبها ابتياعها فبدر الذي كان رسولا فاشتراها فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت درجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها فأتى

---

(١) في الاصل : يقبله

اليها وجعل يفتش الدرج فخرج اليه كتاب من ذلك الفتى الذي كان يهواها مضمخاً بالغالية مصوناً مكرماً فغضب وقال من اين هذا يافاسقة قالت انت سقته الي فقال لعله محدث بعد ذاك الحين فقالت ماهو الا من قديم تلك التي تعرف قال فكأنما القمته حجراً فسقط في يديه وسكت

(باب البين)

وقد علمنا انه لابد لكل مجتمع من افتراق ولكل دان من تناء وتلك عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين وماشيء من دواهي الدنيا يعدل الافتراق ، ولوسالت الارواح به فضلًا عن الدموع كان قليلا . وبعض الحكماء سمع قائلًا يقول : الفراق اخو الموت ، فقال : بل الموت اخو الفراق (١) والبين ينقسم اقساماً :

فأولها مدة يوقن بانصرامها وبالعودة عن قريب وانه لشجى في القلب ، وغصة في الحلق لاتبرأ الا بالرجعة ، وانا اعلم من كان يغيب من يحب عن بصره يوماً واحداً فيعتريه من الهلع والجزع وشغل البال وترادف الكرب مايكاد يأتي عليه

ثم بين منع من اللقاء وتحظير على المحبوب من ان يراه محبه فهذا ولو كان من تحبه معك في دار واحدة فهو بين لأنه بائن عنك وان هذا ليولد من الحزن والاسف غير قليل ، ولقد جزبناه فكان مراً وفي ذلك اقول :

أرى دارها في كل حين وساعة　　ولكن من في الدار عني مغيب

(١) هذا الاسلوب يشبه ما يروى عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها انها قالت : لولا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : السفر قطعة من العذاب ، لقلت : العذاب قطعة من السفر

وهل نافعي قرب الديار واهلها　　على وصلهم مني رقيب مرقب
فيالك جار الجنب اسمع حسه　　واعلم ان الصين أدنى واقرب (١)
كصاد يرى ماء الطوي بعينه　　وليس اليه من سبيل يسبب
كذلك من في اللحد عنك مغيب　　وما دونه الا الصفيح المنصب

واقول من قصيدة مطولة :

متى تشتفي نفس اضر بها الوجد　　وتصقب دار قد طوى اهلها البعد
وعهدي بهند وهي جارة بيتنا　　واقرب من هند لطالبها الهند
بلى ان في قرب الديار لراحة　　كما يمسك الظمآن ان يدنو الورد

ثم بين يتعمده المحب بعداً عن قول الوشاة وخوفاً ان يكون بقاؤه سبباً الى منع اللقاء وذريعة الى ان يفشو الكلام فيقع الحجاب الغليظ

ثم بين يولده المحب لبعض مايدعوه الى ذلك من آفات الزمان وعذره مقبول او مطرح على قدر الحافز له الى الرحيل

(خبر) ولعهدي بصديق لي داره المرية فعنت له حوائج الى شاطبة فقصدها وكان نازلا بها في منزلي مدة اقامته بها وكان له بالمرية علاقة هي اكبر همه وادهى غمه وكان يؤمل تبتيته (٢) وفراغ اسبابه وان يوشك الرجعة ويسرع الاوبة فلم يكن الاحين لطيف بعد احتلاله عندي حتى جيش الموفق ابو الحسن مجاهد صاحب الجزائر الجيوش وقرب العساكر ونابذ خيران صاحب المرية وعزم على استئصاله فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب وتحوميت السبل واحترس البحر بالاساطيل فتضاعف كربه اذ لم يجد الى الانصراف سبيلا البتة وكاد يطفأ أسفاً

---

(١) هذا المعنى يرمي الى قول المعري :

فيا دارها بالخيف ان مزارها　　قريب ولكن دون ذلك اهوال

(٢) التبتيت : التزويد والتجهيز مأخوذ من البتات كسحاب وهو الزاد ومتاع البيت

وصار لايأنس بغير الوحدة ولا يلجأ الا الى الزفير والوجوم ولعمري لقد كان ممن لم اقدر قط فيه ان قلبه يذعن للود ولا شراسة طبعه تجيب الى الهوى واذكر اني دخلت قرطبة بعد رحيلي عنها ثم خرجت منصرفاً عنها فضمني الطريق مع رجل من الكتاب قد رحل لامر مهم وتخلف سكن (١) له فكان يرتمض لذلك واني لاعلم من علق بهوى له وكان في حال شظف وكانت له في الارض مذاهب واسعة ومناديح رحبة ووجوه متصرف كثيرة فهان عليه ذلك وآثر الاقامة مع من يحب وفي ذلك اقول شعراً منه :

لك في البلاد منادح معلومة　　والسيف قفل(٢)او يبين قرابه

ثم بين رحيل وتباعد ديار ولا يكون من الاوبة فيه على يقين خبر ولا يحدث تلاق وهو الخطب الموجع والهم المقطع والحادث الاشنع والداء الدوى واكثر مايكون الهلع فيه اذا كان النائي هو المحبوب وهو الذي قالت فيه الشعراء كثيراً وفي ذلك اقول قصيدة منها :

وذي علة اعيى(٣) الطبيب علاجها　　ستوردني لاشك منهل مصرعي
رضيت بان اضحي قتيل وداده　　كجارع سم في رحيق متعشع
فما لليالي ما اقل حياءها　　واولعها بالنفس من كل مولع
كأن زماني عبشمي يخالني　　أعنت على عثمان اهل التشيع

واقول من قصيدة :

أظنك تمثال الجنان اباحه　　لمجتهد النساك من اوليائه

واقول من قصيدة :

لابرد باللقيا عليلاًمن الهوى　　توقع نيران الغضى هيانه

واقول شعراً منه :

---

(١) السكن بفتح فسكون اهل الدار (٢) كذا في الاصل (٣) في الاصل : اعنى

خفيت عن الابصار والوجد ظاهر　　فاعجب باعراض تبين ولا شخص
غدا الفلك الدوار حلقة خاتم　　محيط بما فيه وانت له فص

واقول من قصيدة :

غنيت عن التشبيه حسناً وبهجة　　كما غنيت شمس السماء عن الحلي
عجبت لنفسي بعده كيف لم تمت　　وهجرانه دفني وفقدانه نعيي
وللجسد الغض المنعم كيف لم　　تذبه يد خشناء ...... (١)

وان للاوبة من البين الذي تشفق منه النفس لطول مسافته وتكاد تيأس من العودة فيه لروعة تبلغ مالا حد وراءه وربما قتلت (٢) وفي ذلك اقول :

للتلاقي بعد الفراق سرور　　كسرور المفيق حانت وفاته
فرحة تبهج (٣) النفوس وتحيي　　من دنا منه بالفراق مماته
ربما قد تكون داهية المو　　ت وتودي باهله هجماته
كم رأينا من عب في الماء عطشا　　ن فزار الحمام وهو حياته

واني لاعلم من نأت دار محبوبه زمناً ثم تيسرت له اوبة فلم يكن الا بقدر التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية فكاد ان يهلك وفي ذلك اقول :

أطلت زمان البعد حتى اذا انقضى　　زمان النوى بالقرب عدت الى البعد
فلم يك الا كرة الطرف قربكم　　وعاودكم بعدي وعاودني وجدي

---

(١) نقص في الاصل (٢) من ذلك مايروى ان جدة ابى الطيب المتنبي لما اتاها كتاب منه فيه خبر قدومه بعد طول غيبته عنها وكانت تحبه حباً جماً حمت من شدة سرورها فماتت وفي ذلك يقول ابو الطيب :

اتاها كتابي بعد يأس وترحة　　فماتت سروراً بي فمت بها غماً
حرام على قلبي السرور فانني　　اعد الذي ماتت به بعدها سما

(٣) في الاصل تبهم

كذا حائر في الليل ضاقت وجوهه رأى البرق في داج من الليل مسود
فأخلفه منه رجاء دوامه وبعض الاراجي لاتفيد ولاتجدي

وفي الاوبة بعد الفراق اقول قطعة منها :

لقد قرت العينان بالقرب منكم كما سخنت ايام يطويكم البعد
فلله فيما قدمضى الصبر والرضى ولله فيما قد قضى الشكر والحمد

(خبر) ولقد نعي الي بعض من كنت احب من بلدة نازحة فقمت قاراً بنفسي نحو المقابر وجعلت امشي بينها واقول :

وددت بان ظهر الارض بطن وان البطن منها صار ظهرا
واني مت قبل ورود خطب أتى فأثار في الأكباد جمرا
وان دمي لمن قد بان غسل وان ضلوع صدري كن قبرا

ثم اتصل بعد حين تكذيب ذلك الخبر فقلت :

بشرى اتت واليأس مستحكم والقلب في سبع طباق شداد
كست فؤادي خضرة بعدما كان فؤادي لابساً للحداد
جلى سواد الغم عني كما يجلى بلون الشمس لون السواد
هذا وما امل وصلا سوى صدق وفاء بقديم الوداد
فالمزن قد تطلب لا للحيا لكن لظل بارد ذي امتداد

ويقع في هذين الصنفين من البين الوداع اعني رحيل المحب او رحيل المحبوب وانه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التي تفتضح فيها عزيمة كل ماضي العزائم وتذهب قوة كل ذي بصيرة وتسكب كل عين جمود ويظهر مكنون الجوى وهو فصل من فصول البين يجب التكلم فيه كالعتاب في باب الهجر ولعمري لو ان ظريفاً يموت في ساعة الوداع لكان معذوراً اذا تفكر فيما يحل به بعد ساعة من انقطاع الآمال وحلول الاوجال وتبدل السرور بالحزن وانها ساعة ترق القلوب القاسية وتلين الافئدة الغلاظ وان حركة الرأس

وادمان النظر والزفرة بعد الوداع لهاتكة حجاب القلب وموصلة اليه من الجزع بمقدار ماتفعل حركة الوجه في ضد هذا والاشارة بالعين والتبسم ومواطن الموافقة والوداع ينقسم قسمين احدهما لايتمكن فيه الا بالنظر والاشارة والثاني يتمكن فيه بالعناق والملازمة وربما لعله كان لايمكن قبل ذلك البتة مع تجاور المحال وامكان التلاقي ولهذا تمنى بعض الشعراء البين ومدحوا يوم النوى وما ذاك بحسن ولابصواب من الرأي ولا بالاصيل من الرأي فما يفي سرور ساعة بحزن ساعات فكيف اذا كان البين اياماً وشهوراً وربما اعواماً وهذا سوء من النظر ومعوج من القياس وانما اثنيت على النوى في شعري تمنياً ارجوع يومها فيكون في كل يوم لقاء ووداع (على ان تحتمل مضض هذا الاسم الكريه وذلك عندما يمضي من الايام التي لا التقاء فيها فحينئذ يرغب المحب من يوم الفراق لوكان امكنه في كل) يوم وفي الصنف الاول من الوداع اقول شعراً منه :

تنوب عن بهجةالانوار بهجته   كما تنوب عن النيران انفاسي

وفي الصنف الثاني من الوداع اقول شعراً منه :

وجه تخر له الانوار ساجدة   والوجه ثم فلم ينقص ولم يزد
دفءٌ وشمس الضحى بالجدي نازلة   وبارد ناعم والشمس في الاسد

ومنه :

يوم الفراق لعمري لست اكرهه   أصلاًوان شت شمل الروح عن جسدي
ففيه عانقت من اهوى بلاجزع   وكان من قبله ان سيل لم يجد
أليس من عجب (١) وعبرتها   يوم الوصال ليوم البين ذو حسد

وهل هجس في الافكار او قام في الظنون اشنع واوجع من هجر عتاب

---

(١) نقص في الاصل ولعل الكلمة الساقطة : دمعي وعبرتها

وقع بين محبين ثم فجأتهما النوى قبل حلول الصلح وانحلال عقدة الهجران فقاما الى الوداع وقد نسي العتاب وجاء ماطم على العوى واطار الكرى وفيه اقول شعراً منه :

وقد سقط العتب المقدم وامحى ‍ ‍ ‍ وجاءت جيوش البين تجري وتسرع
وقد ذعر البين الصدود فراعه ‍ ‍ ‍ فولى فما يدري له اليوم موضع
كذئب خلا بالصيد حتى اضاله ‍ ‍ ‍ هزبر له من جانب الغيل مطلع
لئن سرني في طرده الهجرانني ‍ ‍ ‍ لابعـده عني الحبيب لموجع
ولابد عند الموت من بعض راحة ‍ ‍ ‍ وفي غبها الموت الوحي المصرع

واعرف من اتى ليودع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات فوقف على آثاره ساعة وردد في الموضع الذي كان فيه ثم انصرف كئيباً متغير اللون كاسف البال فما كان بعد ايام قلائل حتى اعتل ومات رحمه الله وان تبين في اظهار السرائر المطوية عملاً عجباً ولقد رأيت من كان حبه مكنوماً وبما يجد مستتراً فيه حتى وقع حادث الفراق فباح المكنون وظهر الخفي وفي ذلك اقول قطعة منها :

بذلت من الود ما كان قبل ‍ ‍ ‍ منعت ‍ ‍ ‍ واعطيتنيه جزافاً
ومالي به حاجة عنـد ذاك ‍ ‍ ‍ ولو جدت قبل بلغت الشغافا
وما ينفع الطب عنـد الحمام ‍ ‍ ‍ وينفع قبل الردى من تلافا

وأقول :

الآن اذ حل الفراق جدت لي ‍ ‍ ‍ بخفي حب كنت تبدي بخله
فزدتني في حسرتي اضعافها ‍ ‍ ‍ ويحي فهلا كان هـذا قبله

ولقد اذكرني هذا اني حظيت في بعض الازمان بمودة رجل من وزراء السلطان ايام جاهه فاظهر بعض الامتناع فتركته حتى ذهبت ايامه وانقضت دولته فأبدى لي من المودة والاخوة غير قليل فقلت :

بذلت لي الاعراض والدهر مقبل　　وتبذل لي الاقبال والدهر معرض
وتبسطني اذ ليس ينفع بسطكم　　فهلا أبحت البسط اذ كنت تقبض

ثم بين الموت وهو الفوت وهو الذي لايرجى له إياب وهو المصيبة الحالة وهو قاصمة الظهر وداهيه الدهر وهو الويل وهو المغطى على ظلمة الليل وهو قاطع كل رجاء وماحي كل طمع والمؤيس من اللقاء وهنا حارت الالسن وانجذ حبل العلاج فلا حيلة الا الصبر طوعاً او كرهاً . وهو اجل مايبتلى به المحبون فما لمن دهي به الا النوح والبكاء الى ان يتلف او يمل فهي القرحة التي لاتنكي والوجع الذي لايغني وهو الغم الذي يتجدد على قدر بلاء من اعتمدته في الثرى وفيه اقول :

كل بين واقع　　فرجى لم يفت
لا تعجل قنطاً　　لم يفت من لم يمت
والذي قد مات فاا　　ليأس عنه قد ثبت

وقد رأينا من عرض له هذا كثير . وعني اخبرك انى احد من دهي بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة وذلك اني كنت اشد الناس كلفاً واعظمهم حباً بجارية لي كانت فيما خلا اسمها نعم (بالضم) وكانت امنية المتمنى وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لي وكنت انا عذرها وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الاقدار واخترمتها الليالي ومر النهار وصارت ثالثة التراب والاحجار وسني حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هي دوني في السن فلقد اقمت بعدها سبعة اشهر لاأتجرد عن ثيابي ولاتفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة اسعادها وعلى ذلك فوالله ماسلوت حتى الآن ولو قبل فداء لفديتها بكل ما املك من تالد وطارف وببعض اعضاء جسمي العزيزة علي مسارعاً طائعاً وما طاب لي عيش بعدها ولانسيت ذكرها ولاأنست بسواها ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده . ومما قلت فيها :

مهذبة بيضاء كالشمس ان بدت   وسائر ربات الحجـل نجوم
أطار هواها القلب عن مستقره   فبعد وقوع ظل وهو يحوم

ومن مراثي فيها قصيدة منها :

كأني لم آنس بالفاظك التي   على عقد الالباب هن نوافث
ولم احكم في الاماني كأني   لافراط ماحكمت فيهن عابث

ومنهـا :

ويبدين اعراضاً وهن أوالف   ويقسمن في هجري وهن حوانث

واقول ايضاً في قصيدة اخاطب فيها ابن عمي ابا المغيرة عبد الوهاب احمد ابن عبد الرحمن بن حزم بن غالب واقرضه فاقول :

قفا فاسألا الاطلال اين قطينها   أمرت عليها بالبلى الملوان
على دارسات مقفلات عواطل   كأن المغاني في الخفاء معاني

واختلف الناس في اي الامرين اشد البين ام الهجر وكلاهما مرتقى صعب وموت احمر وبلية سوداء وسنة شهباء (١) وكل يستبشع من هذين ماضاد طبعه فاما ذو النفس الابية الالوف لاوف الحنانة الثابتة على العهد فلا شيء يعدل عنده مصيبة البين لانه أتى قصداً وتعمدته النوائب عمداً فلا يجد شيئاً يسلي نفسه ولايصرف فكرته في معنى من المعاني الاوجد باعثاً على صبابته ومحركاً لاشجانه وعليه لا له وحجة لوجده وحاضاً على البكاء على إلفه واما الهجر فهو داعية السلو ورائد الاقلاع واما ذو النفس التواقة الكثيرة النزوع والتطلع القلوق العزوف فالهجر داؤه وجالب حتفه والبين له مسلاة ومنساة واما انا فالموت عندي اسهل من الفراق وما الهجر الا جالب للكمد فقط ويوشك ان دام ان يحدث ايغاراً (٢) وفي ذلك اقول :

---

(١) سنة شهباء : مجدبة (٢) في الاصل : ايضارا

وقالوا ارتحل فلعل السلو يكون وترغب ان ترغبه
فقلت الردى لي قبل السلو ومن يشرب السم عن تجربه

واقول :

سبى مهجتي هواه واودت بها نواه
كأن الغرام ضيف وروحي غدا قراه

ولقد رأيت من يستعمل هجر محبوبه ويتعمده خوفاً من مرارة يوم البين وما يحدث به من لوعة الاسف عند التفرق وهذا وان لم يكن عندي من المذاهب المرضية فهو حجة قاطعة على ان البين اصعب من الهجر وكيف لا وفي الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين ولم اجد احداً في الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر وانما يأخذ الناس ابدا الاسهل ويتكلفون الاهون وانما قلنا انه ليس من المذاهب المحمودة لان اصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها ولعل ماتخوفوه الا يكون ليس من يتعجل المكروه وهو على غير يقين مما لم يتعجل بحكيم وفيه اقول شعراً منه :

ابس الصب للصبابة بينا ليس من جانب الاحبة منا
كغني يعيش عيش فقير خوف فقر وفقره قد أبنا

واذكر لابن عمي ابي المغيرة هذا المعنى من ان البين اصعب من الصد ابياتاً من قصيدة خاطبني بها وهو ابن سبعة عشر عاماً او نحوها وهي :

أجزعت ان ازف الرحيل ووهت ان نص الذميل
كلا مصابك فادح وأجل فراقهم جليل
كذب الاولى زعموا بان الصد مرتعه وبيل
لم يعرفوا كنه الغليل ل وقد تحملت الحمول
اما الفراق فانه للموت ان اهوى دليل

ولي في هذا المعنى قصيدة مطولة اولها :

لامثل يومك ضحوة التنعيم　　في منظر حسن وفي تنغيم
قد كان ذاك اليوم ندرة عاقر　　وصواب خاطئة وولد عقيم
ايام برق الوصل ليس بخلب　　عندي ولاروض الهوى بهشيم
من كل غانية يقول ثديها　　سيري امامك والازار أقيمي
كل يجاذبها لحمرة خدها　　خجل من التأخير والتقديم
ما بي سوى تلك العيون وليس في　　برءي سواها في الورى بزعيم
مثل الافاعي ليس في شيء سوى　　أجسادها ابراء لدغ سليم

والبين ابكى الشعراء على المعاهد فأدروا على الرسوم الدموع وسقوا الديار ماء الشوق وتسكروا ماقد سلف لهم فيها فاعولوا وانتحبوا واحيت الاثار دفين شوقهم فناحوا وبكوا ولقد اخبرني بعض الوراد من قرطبة وقد استخبرته عنها انه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها وقد امحت رسومها وطمست اعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى وصارت صحاري مجدبة بعد العمران وفيافي موحشة بعد الانس وخرائب منقطعة بعد الحسن وشعاباً مفزعة بعد الامن ومأوى الذئاب ومعازف للغيلان وملاعب للجان ومكامن للوحوش بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الناشية . تبدد شملهم فصاروا في البلاد ايادي سبا فكأن تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينه التي كانت تشرق اشراق الشمس ويجلو الهموم حسن منظرها حين شملها الخراب وعمها الهدم كافواه السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا وتريك عواقب اهلها وتخبرك عما يصير اليه كل من تراه قائماً فيها وتزهد في طلبها بعد ان طالما زهدت في تركها وتذكرت ايامي بها ولذاتي فيها وشهور صباي لديها مع كواعب الى مثلهن صبا الحليم ومثلت لنفسي كونهن تحت الثرى وفي الآثار النائية والنواحي البعيدة

وقد فرقهن يد الجلاء ومزقتهن أكف النوى وخيل الى بصري بقاء تلك النصبة بعد ماعلمته من حسنها وغضارتها والمراتب المحكمة التي نشأت فيها لديها وخلاء تلك الافنية بعد تضايقها باهلها واوهمت سمعي صوت الصدى والهام (١) عليها بعد حركة تلك الجماعات التي ربيت بينهم فيها وكان ليلها تبعاً لنهارها في انتشار ساكنها والتقاء عمارها فعاد نهارها تبعاً لليلها في الهدؤ والاستيحاش فابكى عيني واوجع قلبي وقرع صفاة كبدي وزاد في بلاء لبي فقلت شعرا منه :

لئن كان أظمانا فقد طال ماسقى   وان ساءنا فيها فقد طال ماسرا

وابين يولد الحنين والاهتياج والتذكر وفي ذلك اقول :

نبت الغراب بعيد اليوم لي فعسى   يبين بينهم عني فقد وقفا
أقول والليل قد أرخى اجلته   وقد تألى بأن لاينقضي قوفا
والنجم قد حار في افق السماء فما   يمضي ولاهو للتخيير (٢) منصرفا
تخاله مخطئاً او خائفاً وجلا   اوراقباً (٣) موعداً اوعاشقاً دنفا

---

(١) الصدى : البوم الذكر والهام جمع هامة وهي طائر من طيور الليل
(٢) لعل الصواب : للتحيير بحاء مهملة اي من اجل حيرته وهو المناسب لقوله : قد حار . والمعنى انه لايمضي في سيره ولاينصرف راجعاً على اعقابه وهو مقتبس من قول امريء القيس :

فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل

(٣) في الاصل راثباً



﴿ باب القنوع ﴾

ولا بد للمحب اذا حرم الوصل من القنوع بما يجد وان في ذلك لتعللاً للنفس وشغلاً للرجاء وتجديداً للمنى وبعض الراحة وهو مراتب على قدر الاصابة والتمكن فاولها الزيارة وانها لامل من الآمال ومن سري مايسنح في الدهر مع ما تبدى من الخفر والحياء لما يعلمه كل واحد منهما مما في نفس صاحبه وهي على وجهين احدهما ان يزور المحب محبوبه وهذا الوجه واسع والوجه الثاني ان يزور المحبوب محبه ولكن لا سبيل الى غير النظر والحديث الظاهر وفي ذلك أقول :

فان تنأ عني بالوصال فانني ... سأرضى بلحظ العين ان لم يكن وصل
فحسبي ان القاك في اليوم مرة ... وما كنت ارضى ضعف ذا منك لي قبل
كذا همة الوالي تكون رفيعة ... ويرضى خلاص النفس ان وقع العزل

واما رجع السلام والمخاطبة فامل من الآمال وان كنت انا اقول في قصيدة لي فيها انا ذا أخفي واقنع راضياً ... برجع سلام ان تيسر في الحين

فانما هذا لمن ينتقل من مرتبة الى ما هو ادنى منها وانما يتفاضل المخلوقات في جميع الاوصاف على قدر اضافتها الى ماهو فوقها او دونها واني لاعرف من كان يقول لمحبوبه عدني واكذب قنوعاً بان يسلي نفسه في وعده وان كان غير صادق فقلت في ذلك :

ان كان وصلك ليس فيه مطمع ... والقرب ممنوع فعدني واكذب
فعسى التعلل بالتقائك ممسك ... لحياة قلب بالصدود معذب
فلقد يسلي المجدبين اذا رأوا ... في الافق يلمع ضوء برق خلب

ومما يدخل في هذا الباب شيء رأيته ورآه غيري معي ان رجلاً من

اخبرني جرحه من كان يحبه بمدية فلقد رأيته وهو يقبل مكان الجرح ويندبه مرةً بعد مرة فقلت في ذلك :

يقولون شجك من همت فيه　　فقلت لعمري ما شجني
ولكن احس دمي قربه　　فطار اليه ولم ينثن
فيا قاتلي ظالماً محسناً　　فديتك من ظالم محسن

ومن القنوع ان يسر الانسان ويرضى ببعض آلات محبوبه وان له من النفس لموقعاً حسناً وان لم يكن فيه الا مانص الله تعالى علينا من ارتداد يعقوب بصيراً حين شم قميص يوسف عليهما السلام وفي ذلك اقول :

لما منعت القرب من سيدي　　ولج في هجري ولم ينصف
صرت بابصاري اثوابه　　او بعض ماقد مسه اكتفي
كذاك يعقوب نبي الهدى　　إذ شفه الحزن على يوسف
شم قميصاً جاء من عنده　　وكان مكفوفاً فمنه شفي

ومن رأيت قط متعاشقين الاوهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعنبر مرشوشة بماء الورد وقد جمعت في اصلها بالمصطكى وبالشمع الابيض المصفى ولفت في تخاريف الوشي والخز وما اشبه ذلك لتكون تذكرة عند البين واما تهادي المساويك بعد مضغها والمصطكى اثر استعمالها فكثير بين كل متحابين قد حظر عليهما اللقاء وفي ذلك اقول قطعة منها :

ازى ريقها ماء الحياة تيقناً　　على انها لم تبق لي في الهوى حشا

(خبر) واخبرني بعض اخواني عن سليمان بن احمد الشاعر انه رأى بن سهل الحاجب بجزيرة صقليه وذكر انه كان غاية في الجمال فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً وامرأة خلفه تنظر اليه فلما ابعد اتت الى المكان الذي قد أثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الارض التي فيها اثر رجله وفي ذلك اقول قطعة اولها :

يلومونني في موطيء خنه جفاً ولو علموا عاد الذي لام يحسد
فيا اهل ارض لاتجود سحابها خذوا بوصاتي تستقلوا وتحمدوا
خذوا من تراب فيه موضع وطئه وأضمن ان المحل عنكم يبعد
فكل تراب واقع فيه رجله فذاك صعيد طيب ليس يجحد
كذلك فعل السامري وقد بدا لعينيه من جبريل إثر ممجد
فصير جوف العجل من ذلك الثرى فقام له منه خوار ممدد

واقول :

لقد بوركت ارض بها انت قاطن وبورك من فيها وحل بها السعد
فاحجارها در وسعدانها ورد وامواهها شهد وتربتها ند

ومن القنوع الرضى بمزار الطيف وتسليم الخيال وهذا انما يحدث عن ذكر لايفارق وعهد لايحول وفكر لاينقضي فاذا نامت العيون وهدأت الحركات سرى الطيف وفي ذلك اقول :

زار الخيال فتى طالت صبابته على احتفاظ من الحراس والحفظه
فبت في ليلتي جذلان مبتهجاً ولذة الطيف تنسى لذة اليقظة

واقول :

أتى طيف نعم (١) مضجعي بعد هدأة ولليل سلطان وظل ممدد
وعهدي بها تحت التراب مقيمة وجاءت كما قد كنت قبله اعهد (٢)
فعدنا كما كنا وعاد زماننا كما قد عهدنا قبل والعود احمد

والشعراء في علة مزار الطيف اقاويل بديعة بعيدة المرمى مخترعة كل سبق الى معنى من المعاني فابو اسحق ابن سيار النظام رأس المعتزلة جعل علة مزار

---

(١) انظر ماتقدم من خبرها في الصفحة ٨٨ (٢) يجب اختلاس مد الهاء في « قبله » ليستقيم الوزن ولو قيل « من قبل » لاستقام بلا تكلف

الطيف خوف الارواح من الرقيب المرقب على بهاء الأبدان وابو تمام حبيب ابن اوس الطائي جعل علته ان نكاح الطيف لايفسد الحب ونكاح الحقيقة يفسده والبحتري جعل علة اقباله استضاءته بنار وجده وعلة زواله خوف الغرق في دموعه وانا اقول من غير ان امثل شعري باشعارهم فلهم فضل التقدم والسابقة وانما نحن لاقطون وهم الحاصدون ولكن اقتداء بهم وجرياً في ميدانهم وتبعاً لطرقهم التي نهجوا واوضحوا : ابياتاً بينت فيها مزار الطيف مقطعة :

أغار عليك من ادراك طرفي ... وأشفق ان يذيبك لمس كفي
فأمتنع اللقـاء حذار هذا ... وأعتمد التـلاقي حين اغفي
فروحي ان انم بك ذو انفراد ... من الاعضاء مستتر ومخـفي
ووصل الروح الطف فيك وقعاً ... من الجسم المواصل الف ضعف

وحال المزور في المنام ينقسم اقساماً اربعة احدهما محب مهجور قد تطاول غمه ثم رأى في هجعته ان حبيبه وصله فسر بذلك وابتهج ثم استيقظ فأسف وتلهف حيث علم ان ما كان فيه اماني النفس وحديثها وفي ذلك اقول :

انت في مشرق النهار بخيل ... واذا الليل جن كنت كريماً
تجعل الشمس منك لي عوضاً هيـ ... ـهات ماذا الفعال منك قويماً
زارني طيفك البعيد فيـأتي ... واصلا لي وعائداً ونديمـاً
غير اني منعتني من تمام العيـ ... ـش لكن ابحت لي التشميما
فـكأني من اهل الاعراف لاالفر ... دوس داري ولا اخاف الجحيما

والثاني محب مواصل مشفق من تغير يقع قد رأى في وسنه ان حبيبه يهجره فاهتم لذلك هماً شديداً ثم هب من نومه فعلم ان ذلك باطل وبعض وساوس الأشفاق . والثالث محب داني الديار يرى ان التناءي قد فدحه ، فيكترث ويوجـل ، ثم ينتبه فيذهب ما به ويعود فرحـاً . وفي ذلك اقول قطعة منها :

رأيتك في نومي كأنك راحل   وقمنا الى التوديع والدمع هامل
وزال الكرى عني وانت معانقي   وغمي اذ عاينت ذلك زائل
فجددت تعنيقاً وضماً كأنني   عليك من البين المفرق واجل (١)

والرابع محب نآءي المزار يرى ان المزار قد دنا والمنازل قد تصاقبت فيرتاح ويأنس الى فقد الاسى ثم يقوم من سنته فيرى ان ذاك غير صحيح فيعود الى اشد ما كان فيه من الغم وقد جملت في بعض قولي علة النوم الطمع في طيف الخيال فقلت :

طاف الخيال على مستهتر كلف   لولا ارتقاب مزار الطيف لم ينم
لاتعجبوا اذ سرى والليل معتكر   فنوره مرهب في الارض للظلم

ومن القنوع ان يقنع المحب بالنظر الى الجدران ورؤية الحيطان التي تحتوي على من يحب وقد رأينا من هذه صفته ولقد حدثني ابو الوليد احمد بن محمد ابن اسحق الخازن رحمه الله عن رجل جليل انه حدث عن نفسه بمثل هذا ومن القنوع ان يرتاح المحب الى ان يرى من رأى محبوبه ويأنس به ومن اتى من بلاده وهذا كثير وفي ذلك اقول :

توحش من سكانه فكأنهم   مساكن عاد اعقبته ثمود

ومما يدخل في هذا الباب ابيات لي موجبها اني تنزهت انا وجماعة من اخواني من اهل الادب والشرف الى بستان لرجل من اصحابنا فجلنا ساعة ثم افضى بنا القعود الى مكان دونه يتمنى فتمددنا في رياض اريضة (٢) وارض عريضة للبصر فيها منفسح وللنفس لديها مسرح بين جداول تطرد كأباريق اللجين واطيار تغرد بالحان تزرى بما ابدعه معبد وابن الغريض وثمار مهدلة قد ذللت للايدي وذللت للمتناول وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها فتصور بين

---

(١) في الاصل قابل ولامعنى له (٢) الارض الاريضة : المعجبة للعين

ايدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة وانهار متدفقة تنساب كبطون الحيات لها خرير يقوم ويهدأ (١) ونواوير مؤنقة مختلفة الالوان تصفقها الرياح الطيبة النسيم وهواء سجسج (٢) واخلاق جلاس تفوق كل هذا في يوم ربيعي ذي شمس ذابلة تارة يغطيها الغيم الرقيق والمزن اللطيف وتارة تنجلي فهي كالعذراء الخفرة والخريدة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الاستار ثم تغيب فيها حذر عين مراقبة وكان بعضنا مطرقاً كأنه يحادث (٣) اخرى وذلك لسر كان له فعرض لي بذلك وتداعبنا حيناً فكلفت ان اقول على لسانه شيئاً في ذلك فقلت بديهة وما كتبوها الا من تذكرها بعد انصرافنا وهي :

ولما تروحنا بأكناف روضة ... مهدلة الافنان في تربها الندي
وقد ضحكت انوارها وتضوعت ... أساورها في ظل فيء ممدد
وأبدت لنا الاطيار حسن صريفها ... فمن بين شاك شجوه ومغرد
والماء فيا بيننا متصرف ... والعين مرتاد هناك وللبد
وماشئت من اخلاق اروع ماجد ... كريم السجايا للفخار مشيد
تنغص عندي كل ماقد وصفته ... ولم يهنني اذ غاب عني سيدي
فياليتني في السجن وهو معانقي ... وانتم معاً في قصر دار المجدد
فمن رام منا ان يبدل حاله ... بحال اخيه او بملك مخلد
فلا عاش الا في شقاء ونكبة ... ولا زال في بؤسى وخزي مردد

فقال هو ومن حضر آمين آمين وهذه الوجوه التي عددت واوردت في حقائق القناعه الموجودة في اهل المودة بلا تزيد ولا اعياء .

---

(١) في الاصل : يهدى (٢) الهواء السجسج : المعتدل بين الحر والبرد
(٣) لعل الصواب : لآلة

وللشعراء فن من القنوع ارادوا فيه اظهار غرضهم وابانة اقتدارهم على المعاني الغامضة والمرامي البعيدة وكل قال على قدر قوة طبعه الا انه تحكم باللسان وتشدق في الكلام واستطالة بالبيان وهو غير صحيح في الاصل فمنهم من قنع بان السماء تظله هو ومحبوبه والارض تقلهما ومنهم من قنع باستوائهما في احاطة الليل والنهار بهما ومن اشباه هذا وكل مبادر الى احتواء الغاية في الاستقصاء واحراز قصب السبق في التدقيق ولي في هذا المعنى قول لايمكن المتعقب الى (١) ان يجد بعده متناولا ولاوراءه مكاناً مع تبييني علة قرب المسافة البعيدة وهو :

وقالوا بعيد قلت حسبي بانه معي في زمان لايطيق محيداً
تمر علي الشمس مثل مرورها به كل يوم يستنير جديداً
فمن ليس بيني في المسير وبينه سوى قطع يوم هل يكون بعيدا
وعلم إله الخلق يجمعنا معاً كفى ذا التداني ما اريد مزيدا

فبينت كما ترى اني قانع بالاجتماع مع من احب في علم الله الذي السموات والافلاك والعوالم كلها وجميع الموجدات لاتنتسب منه ولا تتجزأ فيه ولا يشذ عنه شيء ثم اقتصرت من علم الله تعالى على انه في زمان وهذا اعم مما قاله غيري في احاطة الليل والنهار وان كان الظاهر واحداً في البادي الى السامع لان كل المخلوقات واقعة تحت الزمان وانما الزمان اسم موضع لمرور الساعات وقطع الفلك وحركاته واجرامه والليل والنهار متولدان عن طلوع الشمس وغروبها وهما متناهيان في بعض العالم الاعلى وليس هكذا الزمان فانهما بعض الزمان وان كان لبعض الفلاسفة قول ان الظل متناه فهذا يخطيه العيان وعلل الرد عليه بينة ليس هذا موضعها ثم بينت انه وان كان في اقصى المعمور من المشرق وانا في اقصى

(١) لامحل لكلمة « الى » من الكلام

المعمور من المغرب وهذا طول السكنى فليس بيني وبينه الامسافة يوم اذ الشمس تبدو في اول النهار في اول المشارق وتغرب في آخر النهار في آخر المغارب ومن القنوع فصل أورده واستعيذ بالله منه ومن اهله واحمده على ماعرف نفوسنا من منافرته وهو ان يضل العقل جملة وتفسد القريحة ويتلف التمييز ويهون الصعب وتذهب الغيرة وتعدم الانفة فيرضى الانسان بالمشاركة في من يحب وقد عرض هذا القوم اعاذنا الله من البلاء وهـذا لايصح الا مع كلبية في الطبع وسقوط من العقل الذي هو عيـار (١) على ماتحته وضعف حس ويؤيد هذا كله حب شديد مهم فاذا اجتمعت هذه الاشياء وتلاقحت بمزاج الطبائع ودخول بعضها في بعض نتج بينهما هذا الطبع الخسيس وتولدت هذه الصفة الرذلة وقام منها هـذا الفعل المقذور والقبيح واما رجل معه اقل همة وايسر مروءة فهذا منه ابعد من الثريا ولو مات وجداً وتقطع حبـاً وفي ذلك اقول زاريا على بعض المسامحين في هذا الفصل :

رأيتك رحب الصدر ترضى بما أتى ... وافضل شيء ان تلين وتسمحا
فحظك من بعض السواني (١) مفضل ... على ان يحوز الملك من اصلها الرحا
وعضو بعير فيه في الوزن ضعف ما ... تقدره في الجدي فاعص الذي لحا
ولعب الذي تهوى بسيفين معجب ... فكن ناحياً في نحوه كيف مانحـا

---

(١) لعل الصواب : معيار

(١) السانية كالناعورة تسقى بها الارض

﴿ باب الضنى ﴾

ولابد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل اما ببين واما بهجر واما بكتمان واقع لمعنى من ان يؤول الى حد السقام والضنى والنحول وربما اضجعه ذلك وهذا الامر كثير جداً موجود ابداً والاعراض الواقعة من المحبة غير العلل الواقعة من هجمات العلل ويميزها الطبيب الحاذق والمتفرس الناقد وفي ذلك اقول :

يقول لي الطبيب بغير علم تداو فانت يا هذا عليل
ودائي ليس يدريه سوائي ورب قادر ملك جليل
أأكتمه ويكشفه شهيق يلازمني واطراق طويل
ووجه شاهدات الحزن فيه وجسم كالخيال ضن نحيل
واثبت مايكون الامر يوماً بلا شك اذا صح الدليل
فقلت له ابن عني قليلًا فلا والله تعرف ماتقول
فقال ارى نحولا زاد جداً وعلتك التي تشكو ذبول
فقلت له الذبول تعل منه الجـ وارح وهي حمى تستحيل
وما اشكو لعمر الله حمى وان الحر في جسمي قليل
فقال ارى التفاتاً وارتقاباً وافكاراً وصمتاً لا يزول
واحسب انها السوداء فانظر لنفسك انها عرض ثقيل
فقلت له كلامك ذا محال فما الدمع من عيني يسيل
فاطرق باهتاً مما رآه ألا في مثل ذا بهت النبيل
فقلت له دوائي منه دائي الا في مثل ذا ضلت عقول
وشاهد مااقول يرى عياناً فروع النبت ان عكست اصول
وترياق الافاعي ليس شيء سواه يبره ما لدغت كفيل

وحدثني ابو بكر محمد بن بقي الحجري وكان حكيم الطبع عاقلاً فهماً عن رجل من شيوخنا لايمكن ذكره انه كان ببغداد في خان من خاناتها فرأى ابنة لوكيلة الخان فاحبها وتزوجها فلما خلا بها نظرت اليه وكانت بكراً وهو قد تكشف لبعض حاجته فراعها كبر ...... ففرت الى امها وتفادت منه فرام بها كل من حواليها ان ترد اليه فأبت وكادت ان تموت ففارقها ثم ندم ورام ان يراجعها فلم يمكنه واستعان بالابهري وغيره فلم يقدر احد منهم على حيلة في امره فاختلط عقله واقام في المارستان يعاني مدة طويلة حتى نقه وسلا وما كاد ولقد كان اذا ذكرها يتنفس الصعداء وقد تقدم في اشعاري المذكورة في هذه الرسالة من صفة النحول مفرقاً ما استغنيت به عن ان اذكر هنا من سواها شيئاً خوف الاطالة والله المعين والمستعان وربما ترقت الى ان يغلب المرء على عقله ويحال بينه وبين ذهنه فيوسوس

(خبر) واني لاعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد وقد بلغ بها حب فتى من اخواني جداً من ابناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الاسود وكادت تختلط واشتهر الامر وشاع جداً حتى علمناه وعلمه الاباعد الى ان تدوركت بالعلاج وهذا انما يتولد عن ادمان الفكر فاذا غابت الفكرة وتمكن الخلط السوداوي خرج الامر عن حد الحب الى حد الوله والجنون واذا اغفل التداوي في الاول الى المعاناة قوى جداً ولم يوجد له دواء سوى الوصال ومن بعض ما كتبت اليه قطعة منها :

قدسلبت الفؤادمنها(١)اختلاساً   اي خلق يعيش دون فؤاد
فاغثها بالوصل تحي شريفاً   وتفز بالثواب يوم المعاد
واراها تعتاض ان دام هذا   من خلا خيلها حلى الاقياد

---

(١) في الاصل : منى

انت حقاً متيم الشمس حتى عشقها بين ذا الورى لك بادي

(خبر) وحدثني جعفر مولى احمد بن محمد بن جدير المعروف بالبلبيني ان سبب اختلاط مروان بن يحيى بن احمد بن جدير وذهاب عقله اعتلاقه بجارية لاخيه فمنعها منه واباعها (١) لغيره وما كان في اخوته مثله ولا اتم ادباً منه واخبرني ابو العافية مولى محمد بن عباس بن ابي عبدة ان سبب جنون يحيى بن احمد ابن عباس بن ابي عبدة بيع جارية له كان يجد بها وجداً شديداً كانت امه اباعتها وذهبت الى انكاحه من بعض العامريات فهاذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقولهما واختلطا وصارا في القيود والاغلال فاما مروان فاصابته ضربة مخطئة يوم دخول البربر قرطبة وانتهاءهم اليها فتوفي رحمه الله واما يحيى ابن محمد فهو حي على حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتي هذه وقد رأيته انا مراراً وجالسته في القصر قبل ان يتحن بهذه المحنة وكان استاذي واستاذه الفقيه ابو الخيار اللغوي وكان يحيى لعمري حلواً من الفتيان نبيلاً . واما من دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيراً ولكن لم نسمهم لخفائهم وهذه درجة اذا بلغ المشغوف اليها فقد انبت الرجاء وانصرم الطمع فلا دواء له بالوصل ولا بغيره اذ قد استحكم الفساد في الدماغ وتلفت المعرفة وتغلبت الآفة اعاذنا الله من البلاء بطوله وكفانا النقم بمنه .

---

(١) اراد من الاباعة هنا البيع نفسه ، والذي في القاموس : اباعه عرضه للبيع

﴿ باب السلو ﴾

وقد علمنا ان كل ماله اول فلا بد له من آخر حاشى نعيم الله عز وجل بالجنة لاوليائه وعذابه بالنار لاعدائه واما اعراض الدنيا فنافذة فانية وزائلة مضمحلة وعاقبة كل حب الى احد امرين اما اخترام منية واما سلو حادث وقد نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرفة معها في الجسد فكما نجد نفساً ترفض الراحات والملاذ للعقل في طاعة الله تعالى وللرياء في الدنيا حتى تشتهر بالزهد فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة في لقاء شكلها للانفة المستحكمة المنافرة للغدر او استمرار سوء المكافأة في الضمير وهذا اصح السلو وما كان من غير هذين الشيئين فليس الامذموماً والسلو المتولد عن الهجر وطوله انما هو كاليأس يدخل على النفس من بلوغها الى املها فيفتر نزاعها ولايقوي رغبتها ولي في ذم السلو قصيدة منها :

اذا مارنت فالحي ميت بلحظها   وان نطقت قات السلام رطاب
كأن الهوى ضيف ألم بمهجتي   فلحمي طعام والنجيع شراب

ومنها :

صبور على الازم الذي العز خلفه   ولو امطرته بالحريق سحاب
جزوعاً من الراحات ان اتجتله   خمولا وفي بعض النعيم عذاب

والسلو في التجربة الجملة ينقسم قسمين سلو طبيعي وهو المسمى بالنسيان يخلو به القلب ويفرغ به البال ويكون الانسان كانه لم يحب قط وهذا القسم ربما لحق صاحبه الذم لانه حادث عن اخلاق مذمومة وعن اسباب غير موجبة استحقاق النسيان وستأتي مبينة ان شاء الله تعالى وربما لم تلحقه اللائمة لعذر صحيح والثاني سلو تطبعي قهر النفس وهو المسمى بالتصبر فترى المرء يظهر التجلد

وفي قلبه اشد لذعاً من وخز الاشفى (١) ولكنه يرى بعض الشر اهون بعض او يحاسب نفسه بحجة لاتصرف ولا تكسر وهذا قسم لا يذم آتيه ولا يلام فاعله لانه لايحدث الا عن عظيمة ولا يقع الا عن فادحة اما لسبب لا يصبر على مثله الاحرار واما لخطب لامرد له تجري به الاقدار وكفاك من الموصوف به انه ليس بناس لكنه ذاكر وذو حنين واقف على العهد ومتجرع مرارات الصبر والفرق العامي بين المتصبر والناسي انك ترى المتصبر وان ابدى غاية الجلد واظهر سب محبوبه والتحمل عليه لا يحتمل ذلك من غيره وفي ذلك اقول قطعة منها :

دعوني وسبي للحبيب فانني وان كنت ابدي الهجر لست معادياً
ولكن سبي للحبيب كتوطهم أجاد فلقاه الاله الدواهيا

والناسي ضد هذا وكل هذا فعلى قدر طبيعة الانسان واجابتها وامتناعها وقوة تمكن الحب من القلب او ضعفه وفي ذلك اقول وسميت السالي فيه المتصبر قطعة منها :

ناسي الاحبة غير من يسلوهم حكم المقصر غير حكم المقصر
ما فاصر للنفس غير مجيبها ما الصابر المطبوع كالمتصبر

والاسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة وعلى حسبها وبقدر الواقع منها يعذر السالي ويذم

فمنها الملل وقد قدمنا الكلام عليه وان من كان سلوه عن ملل فليس حبه حقيقة والموسم به صاحب دعوى زائفة وانما هو طالب لذة ومبادر شهوة والسالي من هذا الوجه ناس مذموم (٢)

(١) الاشفى : المثقب والسراد يخرز به ويؤنث « قاموس »
(٢) انظر ماقدمه في الصفحة ٦٩ — ٧٠ عن ابى عامر محمد بن عامر

ومنها الاستبدال وهو وان كان يشبه الملل ففيه معنى زائد وهو بذلك المعنى اقبح من الاول وصاحبه احق بالذم

ومنها حياء مركب يكون في المحب يحول بينه وبين التعريض بما يجد فيتطاول الامر وتتراخى المدة ويبلى جديد المودة ويحدث السلو وهذا وجه ان كان السالي عنه ناسياً فليس بمنصف اذ منه جاء سبب الحرمان وان كان متصبراً فليس بملوم اذ آثر الحياء على لذة نفسه وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: « الحياء من الايمان والبذاء من النفاق » وحدثنا احمد ابن محمد عن احمد بن مطرف عن عبد الله بن يحيى عن ابيه عن ملك عن سلمة بن صفوان الزرقي عن زيد بن طلحة بن ركانة يرفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء » فهذه الاسباب الثلاثة اصلها من المحب وابتداؤها من قبله والذم لاصق به في نسيانه لمن يحب

ثم منها اسباب اربعة هن من قبل المحبوب واصلها عنده : فمنها الهجر وقد مر تفسير وجوهه ولا بد لنا ان نورد منه شيئاً في هذا الباب يوافقه والهجر اذا تطاول وكثر العتاب واتصلت المفارقة يكون باباً الى السلو وليس من وصلك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر في شيء لانه الغدر الصحيح ، ولا من مال الى غيرك دون ان يتقدم لك معه صلة من الهجر ايضاً في شيء انما ذلك هو التفدر وسيقع الكلام في هذين الفصلين بعد هذا ان شاء الله تعالى لكن الهجر ممن وصلك ثم قطعك لتثقيل واش او لذنب واقع او لشيء قام في النفس ولم يمل الى سواك ولا اقام احداً غيرك مقامك . والناسي في هذا الفصل من المحبين ملوم دون سائر الاسباب الواقعة من المحبوب لانه لايقع حالة تقيم العذر في نسيانه وانما هو راغب عن وصالك وهو شيء لايلزمه وقد تقدم من اذمة الوصال وحق ايامه ما يلزم التذكر ويوجب عهد الالفة ولكن السالي على

جهة التصبر والتجلد هاهنا معذور اذا رأى الهجر متمادياً ولم ير للوصال علامة ولا للمراجعة دلالة ، وقد استجاز كثير من الناس ان يسموا هذا المعنى غدراً اذ ظاهرهما واحد ولكن علتيهما مختلفتان فلذلك فرقنا بينهما في الحقيقة واقول في ذلك شعراً منه :

فكونوا كمن لم أدر قط فانني كآخر لم تدروا ولم تصلوه
انا كالصدا ماقال كل أجيبه فما شئتموه اليوم فاعتمدوه

واقول ايضاً قطعة ثلاثة ابيات قلتها وانا نائم واستيقظت فاضفت اليها البيت الرابع :

الا لله دهر كنت فيه أعز على من روحي وأهلي
فما برحت يد الهجران حتى طواك بنانها طي السجل
سقاني الصبر هجركم كما قد سقاني الحب وصلكم بسجل
وجدت الوصل اصل الوجد حقاً وطول الهجر اصلا للتسلي

واقول ايضاً منها :

لو قيل لي من قبل ذا ان سوف تسلو من تود
لحلفت الف قسامة لا كان ذا ابد الابد
و اذا طويل الهجر ما معه من السلوان بد
لله هجرك إنه ساع لبرء مجتهد
فالآن اعجب للسلو وكنت اعجب للتجلد
وأرى هواك كجمرة تحت الرماد لها مدد

واقول :

كانت جهنم في الحشى من حبكم فلقد أراها نار ابراهيم

ثم الاسباب الثلاث الباقية التي هي من قبل المحبوب فالمتصبر من الناس فيها غير مذموم لما سنورده ان شاء الله في كل فصل منها

فتها نفار يكون في المحبوب وازواء قاطع للاطماع

(خبر) واني لاخبرك عني اني الفت في ايام صباي الفة المحبة جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها عديمة الهزل منيعة البذل بديعة البشر مسبلة الستر فقيدة الذام قليلة الكلام مغضوضة البصر شديدة الحذر نقية من العيوب دائمة القطوب حلوة الاعراض مطبوعة الانقباض مليحة الصدود رزينة القعود كثيرة الوقار مستلذة النفار لا توجه الاراجي نحوها ولا تقف المطامع عليها ولا معرس للامل لديها فوجهها جالب كل القلوب وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل مالايزدان غيرها بالسماحة والبذل موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو على انها كانت تحسن العود احساناً جيداً فجنحت اليها واحببتها حباً مفرطاً شديداً فسعيت عامين او نحوهما ان تجيبني بكلمة واسمع من فيها لفظة — غير مايقع في الحديث الظاهر الى كل سامع — بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك الى شيء البتة ، فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض مايصطنع له في دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا ودخلة اخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاذ بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلن الى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها (١) مفتحة الابواب فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وانا بينهن فاني لاذكر اني كنت اقصد نحو الباب الذي هي فيه انساً بقربها متعرضاً للدنو منها فما هو الا ان تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة فاتعمد انا القصد الى الباب الذي صارت اليه فتعود الى مثل ذلك الفعل من الزوال الى غيره ، وكانت قد

---

(١) الفحوص جمع فحص وهو كل موضع يسكن

علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لانهن كن عدداً كثيراً واذ كلهن يتنقلن من باب الى باب لسبب الاطلاع من بعض الابواب على جهات لايطلع من غيرها عليها ، واعلم ان قيافة النساء في من يميل اليهن انفذ من قيافة مدلج في الآثار ثم نزلن الى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا الى سيدتها في سماع غنائها فامرتها فاخذت العود وسوته بخفر وخجل لاعهد لي بمثله وان الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة ثم اندفعت تغني بابيات العباس ابن الاحنف حيث يقول :

انى طربت الى شمس اذا غربت ... كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية ... كأن اعطافها طي الطوامير
ليست من الانس الا في مناسبة ... ولا من الجن الا في التصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عبهرة ... والريح عنبرة والكل من نور
كأنها حين تخطو في مجاسدها(١) ... تخطو على البيض اوحد القوارير

فلعمري لكأن المضراب انما يقع على قلبي ومانسيت ذلك اليوم ولا انساه الى يوم مفارقتي الدنيا وهذا اكثر ماوصلت اليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها وفي ذلك اقول :

لاتلمها على النفار ومنع الوصل ... كم ماذا لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد ... او يكون الغزال غير نفور

واقول :

منعت جمال وجهك مقلتيا ... ولفظك قد ضننت به عليا
أراك نذرت للرحمن صوماً ... فلست تكلمين اليوم حيا
وقد غنيت للعباس شعراً ... هنيئا ذا لعباس هنيا

---

(١) المجسد : كمبرد ثوب يلي الجسد « قاموس »

فلو يلقاك عباس لاضحى   لفوز قاليـاً وبكم شجيـا

ثم انتقل ابي رحمه الله من دورنا المحدث (١) بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة الى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام امير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت انا بانتقاله وذلك في جمادي الاخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ولم تنتقل هي بانتقالنا لامور اوجبت ذلك ثم شغلنا بعد قيام امير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء ارباب دولته وامتحنا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار وارزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا الى ان توفي ابي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الاحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين واربعمائة واتصلت بنا تلك الحال بعده الى ان كانت عندنا جنازه لبعض اهلنا فرأيتها — وقد ارتفعت الواعية (٢) — قائمة في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب فلقد اثارت وجداً دفيناً وحركت ساكناً وذكرتني عهداً قديماً وحباً تليداً ودهراً ماضياً وزمناً عافياً وشهوراً خوالي واخباراً بوالي ودهوراً فواني واياماً قد ذهبت وآثاراً قد دثرت ، وجددت احزاني وهيجت بلابلي على اني كنت في ذلك النهار مرزءاً مصاباً من وجوه وما كنت نسيت ولكن زاد الشجى وتوقدت اللوعة وتأكد الحزن وتضاعف الاسف واستجلب الوجد ما كان منه كامناً فلباه مجيباً فقلت قطعة منها :

يبكي لميت مات وهو مكرم   وللحي أولى بالدموع الذوارف
فيا عجباً من آسف لامرء ثوى   وما هو المقتول ظلماً بآسف

ثم ضرب الدهر ضربانه واجلينا عن منازلنا وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة اول المحرم سنة اربع واربعمائة وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية

---

(١) لعل الصواب : المحدثة (١) الواعية : الصراخ والصوت « قاموس »

الواحدة ستة اعوام وا كثر ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع واربعماية فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك وما كدت ان اميزها حتى قيل لي هذه فلانة وقد تغير اكثر محاسنها وذهبت نضارتها وفنيت تلك البهجة وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية وذبل ذلك النوار (١) الذي كان البصر يقصد نحوه متبوراً (٢) ويرتاد فيه متخيراً وينصرف عنه متحيراً فلم يبق الا البعض المنبيء عن الكل والخبر المخبر عن الجميع وذلك لقلة اهتبالها بنفسها وعدمها الصيانة التي كانت غذيت بها ايام دولتنا وامتداد ظلنا ولتبذلها في الخروج فيما لابد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وانما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت ولذلك قال من قال ان حسن الرجال اصدق صدقاً واثبت اصلاً واعتق جودة لصبره على ما لو لقي بعضه وجود النساء لتغيرت اشد التغير مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن واني لو نلت منها اقل وصل وأنست لي بعض الانس لخولطت طرباً او لمت فرحاً ولكن هذا النفار الذي صبرني وأسلاني وهذا الوجه من اسباب السلو صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم اذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء ولا عهد يقتضي المحافظة ولا سلف ذمام ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه

ومنها جفاء يكون من المحبوب فاذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المحب نفساً لها بعض الانفة والعزة تسلى واذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً او دائماً او كبيراً منقطعاً احتمل وأغضى عليه حتى اذا كثر ودام فلا بقاء عليه ولا يلام الناسي لمن يحب في مثل هذا

ومنها الغدر وهو الذي لايحتمله احد ولايغضي عليه كريم وهو المسلاة

---

(١) النوار كرمان الزهر (٢) كذا في الاصل ولعل الصواب مبتاراً اي مختبراً

حقاً ولايلام السالي عنه على اي وجه كان ناسياً او متصبراً بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه ولولا ان القلوب بيد مقلبها لا اله الاهو ولايكلف المرء صرف قلبه ولا احالة استحسانه ولولا ذاك لقلت ان المتصبر في سلوه مع الغدر يكاد ان يستحق الملامة والتعنيف ولاادعى الى السلو عند الحر النفس وذوي الحفيظة والسري السجايا من الغدر فما يصبر عليه الا دنيء المرؤة خسيس النفس نذل الهمة ساقط الانفة وفي ذلك اقول قطعة منها :

هواك فلست اقربه غرور ... وانت لكل من يأتي سرير
وما ان تصبرين على حبيب ... فحولك منهم عدد كثير
فلو كنت الامير لما تعاطى ... لقاءك خوف جمعهم الامير
رأيتك كالاماني ماعلى من ... يلم بها ولو كثروا غرور
ولاعنها لمن يأتي دفاع ... ولو حشد الانام لهم نفير

ثم سبب ثامن وهو لا من المحب ولا من المحبوب ولكنه من الله تعالى وهو اليأس وفروعه ثلاثة إما موت وإما بين لايرجى معه أوبة وإما عرض يدخل على المتحابين بعلة المحب التى من اجلها وثق المحبوب فيغيرها وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبر وعلى المحب الناسي في هذا الوجه المقسم الى هذه الاقسام الثلاثة من الغضاضة والذم واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل وان لليأس لعملاً في النفوس عجيباً وثلجاً لحر الاكباد كبيراً وكل هذه الوجوه المذكورة اولا وآخراً فالتأني فيها واجب والتربص على اهلها حسن فيما يمكن فيه التأني ويصح لديه التربص فاذا انقطعت الاطماع وانحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر وللشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكي على الدمن ويثنون على المثابر على اللذات وهذا يدخل في باب السلو ولقد اكثر الحسن بن هانيء في هذا الباب وافتخر به وهو كثيراً مايصف نفسه بالغدر الصريح في اشعاره تحكماً بلسانه واقتداراً على القول وفي مثل هذا اقول شعراً منه :

خل هذا وبادر الدهر وارحل في رياض الربي مطي القفار (١)
واجدها بالبديع من نغمات الـ عود كيما تحث بالمزمار
ان خيراً من الوقوف على الدا ر وقوف البنان بالاوتار
وبدا النرجس البديع كصب حائر الطرف مائلاً كالمدار
لونه لون عاشق مستهام وهو لاشك هائم بالبهار

ومعاذ الله ان يكون نسيان مادرس لنا طبعاً ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً وكساد الهمة لنا صفة ولكن حسبنا قول الله تعالى ومن اصدق من الله قيلاً في الشعراء ﴿ ألم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لايفعلون ﴾ فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ وكان سبب هذه الابيات ان ضنا العامرية احدى كرائم المظفر عبد الملك ابن ابي عامر كلفتني صنعتها فاجبتها وكنت اجلها ولها فيها صنعة في طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً ولقد انشدتها بعض اخواني من اهل الادب فقال سروراً بها « يجب ان توضع هذه في جملة عجائب الدنيا »

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية : منها ثلاثة هي من المحب « اثنان منها » يذم السالي فيهما على كل وجه وهما الملل والاستبدال « وو[illegible] » يذم السالي فيه ولايذم المتصبر وهو الحياء كما قدمنا . واربعة من المحبوب منها واحد يذم الناسي فيه ولايذم المتصبر وهو الهجر الدائم . وثلاثة لايذم السالي فيها على أي وجه كان ناسياً او متصبراً وهي النفار والجفاء والغدر ووجه ثامن وهو من قبل الله عز وجل وهو اليأس اما بموت او بين او آفة تزمن والتصبر في هذه معذور

---

(١) لعل الصواب « العقار » بمعنى الخمر كما يدل عليه اعتذاره بعد بقوله : « ومعصية الله بشرب الراح » الخ ...

وعني اخبرك اني جبلت على طبيعتين لايهنني معهما عيش ابداً واني لابرم بحياتي باجتماعهما واود التثبت من نفسي احياناً لافقد ما أنا بسببه من النكد من اجلهما وهما : وفاء لايشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر تولده الالفة التي لم تعزف بها نفسي عما دريته ولاتتطلع الى عدم من صحبته . وعزة نفس لاتقر على الضيم مهتمة لاقل مايرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو الى نفسها واني لاجفى فاحتمل واستعمل الاناة الطويلة والتلوم الذي لايكاد يطيقه احد فاذا افرط الامر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب مافيه وفي ذلك اقول قطعة منها :

لي خلتان اذاقاني الاسى جرعاً ونغصا عيشتي واستهلكا جلدي
كلتاهما تطبيني نحو جبلتها كالصيد ينشب بين الذئب والاسد
وفاء صدق فما فارقت ذا مقة فزال حزني عليه آخر الابد
وعزة لايحل الضيم ساحتها صرامة فيه بالاموال والولد

ومما يشبه مانحن فيه وان كان ليس منه ان رجلاً من اخواني كنت حللته من نفسي محلها واسقطت المؤونة بيني وبينه واعددته ذخراً وكنزاً وكان كثير السمع من كل قائل فدب ذو النميمة بيني وبينه فحاكوا فيه وانجح سعيهم عنده فانقبض عما كنت اعهده فتربصت عليه مدة في مثلها أوب الغائب ورضى العاتب فلم يزد الا انقباضاً فتركته وحاله



﴿ باب الموت ﴾

وربما تزايد الامر ورق الطبع وعظم الاشفاق فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا وقد جاء في الآثار ﴿ من عشق فعف فمات فهو شهيد ﴾ وفي ذلك اقول قطعة منها :

فان أهلك هوى أهلك شهيداً   وان تمنن بقيت قرير عـين
روى لنـا هذا قوم ثقات   ثووا بالصدق عن جرح ومين

ولقد حدثني ابو السرى عمار بن زياد صاحبنا عمن يثق به ان الـكاتب ابن قزمان امتحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز اخي الحاجب هاشم بن عبد العزيز وكان اسلم غاية في الجمال حتى اضجعه لما به واوقعه في اسباب المنية وكان اسلم كثير الالمام به والزيارة له ولاعلم له بانه اصل دائه الى ان توفي اسفاً ودنفاً قال المخبر فاخبرت اسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال هلا اعلمتني فقلت ولم قال كنت والله ازيد في صلته وما اكاد افارقه فما علي في ذلك ضرر وكان أسلم هذا من اهل الادب البارع والتفنن مع حظ من الفقه وافر وذا بصارة في الشعر وله شعر جيد وله معرفة بالاغاني وتصرفها وهو صاحب تآليف في طرائق غناء زرياب واخباره وهو ديوان عجيب جداً وكان احسن الناس خلقاً وخلقا وهو والد ابي الجعد الذي كان ساكناً بالجانب الغربي من قرطبة

وانا اعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يوجب السخط فباعها فجزعت لذلك جزعاً شديـداً وما فارقها النحول والاسف ولابان عن عينها الدمع الى ان سلت وكان ذلك سبب موتها ولم تعش بعد خروجها عنه الا اشهراً ليست بالـكثيرة . ولقد اخبرتني عنها امرأة ثق بها أنها لقيتها وهي قد صارت كالخيال نحولا ورقة فقالت لها احسب هذا الذي

يك من محبتك لفلان فتنفست الصعداء وقالت والله لانسيته ابداً وان كان جفاني بلا سبب وما عاشت بعد هذا القول الايسيراً

وانا اخبرك عن ابي بكر اخي رحمه الله وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند صاحب الثغر الاعلى ايام المنصور ابي عامر محمد بن عامر وكانت التي لا مرمى وراءها في جمالها وكريم خلالها ولاتأتي الدنيا بمثلها في فضائلها وكانا في جد الصبي وتمكن سلطانه . يغضب كل واحد منهما الكلمة التي لاقدر لها فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية اعوام وكانت قد شفها حبه واضناها الوجد فيه وأنحلها شدة كلفها به حتى صارت كالخيال المتوسم دنفاً لايلهيها من الدنيا شيء ولاتسر من اموالها على عرضها وتكاثرها بقليل ولا كثير اذ فاتها اتفاقه معها وسلامته لها الى ان توفي اخي رحمه الله في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة سنة احدى واربعمائة وهو ابن اثنين وعشرين سنة فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول الى ان ماتت بعده بعام في اليوم الذي اكمل هو فيه تحت الارض عاماً . ولقد اخبرتني عنها امها وجميع جواريها انها كانت تقول بعده مايقوي صبري ويمسك رمقي في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته الا سروري وتيقني انه لايضمه وامرأة مضجع ابداً فقد امنت هذا الذي ما كنت اتخوف غيره واعظم آمالي اليوم اللحاق به . ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها وهي كذلك لم يكن لها غيره فكان كما قدرت غفر الله لها ورضي عنها

واما خبر صاحبنا ابي عبد الله محمد بن يحيي بن محمد بن الحسين التميمي المعروف بابن الطبني فانه كان رحمه الله كأنه قد خلق الحسن على مثله اوخلق من نفس كل من رآه (١) لم اشاهد له مثلا حسناً وجمالا وخلقاً وعفة وتصاوناً

(١) فيه اشارة الى قول الشاعر :

كأنك من كل النفوس مكون — فانت الى كل النفوس حبيب

وادباً وفهماً وحلماً ووفاء وسؤدداً وطهارة وكرماً. ودماثة وحلاوة ولباقة واغضاء وعقلاً ومروءة وديناً ودراية وحفظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة وشاعراً مفلقاً وحسن الخط وبليغاً مفتناً مع حظ صالح من الكلام والجدل وكان من غلمان ابي القاسم عبد الرحمن بن ابي يزيد الازدي استاذي في هذا الشأن وكان بينه وبين ابيه اثنا عشر عاماً في السن وكنت انا وهو متقاربين في الاسنان وكنا أليفين لانفترق، وخدنين لايجري الماء بيننا صفاء الى ان القت الفتنة جرانها وارخت عزاليها ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها وكان مسكن ابي عبد الله في الجانب الشرقي ببلاط مغيث وتقلبت بي الامور الى الخروج عن قرطبة وسكني مدينة المرية فكنا نتهادى النظم والنثر كثيراً وآخر ماخاطبني به رسالة في درجها هذه الابيات :

ليت شعري عن حبل ودك هل يمـ سي جـديداً لدي غير رثيث
وأراني أرى محيـاك يوماً وأناجيـك في بلاط مغيث
فلو ان الديار ينهضها الشو ق أتاك البلاط كالمستغيث
ولو ان القلوب تسطيع سيراً سار قلبي اليك سير الحثيث
كن كما شئت لي فاني محب ليس لي غير ذكركم من حديث
لك عندي وان تناسيت عهداً في صميم الفؤاد غير نكيث

فكنا على ذلك الى ان انقطعت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر امير المؤمنين وظهرت دولة الطالبية وبويع علي بن حمود الحسني المسمى بالناصر بالخلافة وتغلب على قرطبة وتملكها واستمر في قتاله اياها بجيوش المتغلبين والثوار في اقطار الاندلس وفي اثر ذلك نكبني خيران صاحب المرية اذ نقل اليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين — وقد انتقم الله منهم عني وعن محمد ابن اسحق صاحبي — انا نسعى في القيام بدعوة الدولة الاموية فاعتقلنا عند نفسه اشهراً ثم اخرجنا على جهة التغريب فصرنا الى حصن القصر ولقينا صاحبه ابو القاسم

عبد الله بن هذيل التجيبي المعروف بابن المقفل فاقمنا عنده شهوراً في خير دار اقامة وبين خير اهل وجيران وعند اجل الناس همة وا كملهم معروفاً واتمهم سيادة ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور امير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد وسكناه بها فوجدت ببلنسية ابا شاكر عبد الرحمن بن محمد ابن موهب العنبري صديقنا فنعى الي ابا عبد الله بن الطبنى واخبرني بموته رحمه الله ثم اخبرني بعد ذلك بمديدة القاضي ابو الوليد يونس بن محمد المرادي وابو عمرو احمد بن محرز ان ابا بكر المصعب بن عبد الله الازدي المعروف بابن الفرضي حدثهما وكان والد المصعب هذا قاضي بلنسية ايام امير المؤمنين المهدي وكان المصعب لنا صديقاً وأخاً واليفاً ايام طلبنا الحديث على والده وسائر شيوخ المحدثين بقرطبة ، قالا : قال لنا المصعب سألت ابا عبد الله بن الطبنى عن سبب علته وهو قد نحل وخفيت محاسن وجهه بالضنى فلم يبق الا عين جوهرها المخبر عن صفاتها السالفة وصار يكاد ان يطيره النفس وقرب من الانحناء والشجا باد على وجهه ونحن منفردان فقال لي نعم اخبرك اني كنت على باب داري بقديد الشماس في حين دخول علي بن حمود قرطبة والجيوش واردة عليها من الجهات تتسارب فرأيت في جملتهم فتى لم أقدر ان للحسن صورة قائمة حتى رأيته فغلب على عقلي وهام به لبي فسألت عنه فقيل لي هذا فلان ابن فلان من سكان جهة كذا ناحية قاصية عن قرطبة بعيدة المأخذ فيئست عن (١) رؤيته بعد ذلك ولعمري يا أبا بكر لافارقني حبه او يوردني رمسي فكان كذلك وانا اعرف ذلك الفتى وادريه وقد رأيته لكني اضربت عن اسمه لانه قد مات والتقى كلاهما عند الله عز وجل عفا الله عن الجميع هذا على ان ابا عبد الله اكرم الله نزله ممن لم يكن له وله قط ولافارق الطريقة المثلى ولاوطيء حراماً قط ولا قارف مسكراً ولااتى منهياً عنه يخل بدينه ومرؤته ولاقارض من جفا عليه وما كان فى طبقتنا

(١) لعل الصواب : من

مثله ثم دخلت انا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون فلم اقدم شيئاً على قصد ابي عمرو القاسم بن يحيى التميمي اخي عبد الله رحمه الله فسألته عن حاله وعزيته عن اخيه وما كان اولى بالتعزية عنه مني ثم سألته عن اشعاره ورسائله اذ كان الذي عندي منه قد ذهب بالنهب في السبب الذي ذكرته في صدر هذه الحكاية فاخبرني عنه انه لما قربت وفاته وايقن بحضور المنية ولم يشك في الموت دعا بجميع شعره وبكتبي التي كنت خاطبته انا بها فقطعها كلها ثم امر بدفنها قال ابو عمرو فقلت له يا اخي دعها تبقى فقال اني اقطعها وانا ادري اني اقطع فيها ادباً كثيراً ولكن لو كان ابو محمد بعيني حاضراً لدفعتها اليه تكون عنده تذكرة لمودتي ولكني لا اعلم اي البلاد اضمرته ولا أحي هو ام ميت وكانت نكبتي اتصلت به ولم يعلم مستقري ولا الى ما آل امري فمن مراثي له قصيدة منها :

لئن سترتك بطون اللحود   فوجدي بعدك لا يستتر
قصدت ديارك قصد المشوق   وللدهر فينا كرور ومر
فألفيتها منك قفراً خلاء   فاسكبت عيني عليك العبر

وحدثني ابو القاسم الهمذاني رحمه الله قال كان معنا ببغداذ(١) اخ لعبد الله ابن يحيى بن احمد بن دحون الفقيه الذي عليه مدار الفتيا بقرطبة وكان اعلم من اخيه واجل مقداراً ما كان في اصحابنا ببغداذ مثله وانه اجتاز يوماً بدرب قطنه في زقاق لاينفذ فدخل فيه فرأى في اقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه فقالت له ياهذا ان الدرب لاينفذ قال فنظر اليها فهام بها قال وانصرف الينا فتزايد عليه امرها وخشي الفتنة فخرج الى البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله وكان فيما ذكر من الصالحين

---

(١) في المختار : (بغداذ) (وبغداد) (وبغدان)

(حكاية) لم ازل اسمها عن بعض ملوك البرابر ان رجلا اندلسياً باع جارية كان يجد بها وجداً شديداً لفاقة اصابته من رجل من اهل ذلك البلد ولم يظن بائعها ان نفسه تتبعها ذلك التتبع فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الاندلسي تخرج فأتى الى الذي ابتاعها منه وحكمه في ماله اجمع وفي نفسه فأبى عليه فتحمل عليه باهل البلد فلم يسعف منهم احد فكاد عقله ان يذهب ورأى ان يتصدى الى الملك فتعرض له وصاح فسمعه فامر بادخاله والملك قاعد في علية له مشرفة عالية فوصل اليه فلما مثل بين يديه اخبره بقصته واسترحمه وتضرع اليه فرق له الملك فأمر باحضار الرجل المبتاع فحضر فقال له هذا رجل غريب وهو كما تراه وانا شفيعه اليك فأبى المبتاع وقال انا اشد حباً لها منه واخشى ان صرفتها اليه ان استغيث بك غداً وانا في اسوأ من حالته فرام به الملك ومن حواليه في اموالهم فأبى ولج واعتذر بمحبته لها فلما طال المجلس ولم يروا منه البتة جنوحاً الى الاسعاف قال للاندلسي يا هذا مالك بيدي اكثر مما ترى وقد جهدت لك بأبلغ سعي وهو تراه يعتذر بانه فيها احب منك وانه يخشى على نفسه شراً مما انت فيه فاصبر لما قضى الله عليك فقال له الاندلسي فمالي بيدك حيلة قال له وهل هاهنا غير الرغبة والبذل ما استطيع لك اكثر فلما يئس الاندلسي منها جمع يديه ورجليه وانصب من اعلى العلية الى الارض فارتاع الملك وصرخ فابتدر الغلمان من اسفل فقضى انه لم يتأذ في ذلك الوقوع كبير أذى فصعد به الى الملك فقال له ماذا اردت بهذا فقال ايها الملك لاسبيل لي الى الحياة بعدها ثم هم ان يرمي نفسه ثانية فمنع فقال الملك الله اكبر قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة ثم التفت الى المشتري فقال ياهذا انك ذكرت انك اود لها منه وتخاف ان تصير في مثل حاله فقال نعم قال فان صاحبك هذا ابدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لولا ان الله عز وجل وقاه فانت قم فصحح حبك وترام من اعلى هذه القصبة كما

فعل صاحبك فان مت فبأجلك وان عشت كنت اولى بالجارية اذ هي في يدك ويتضي صاحبك عنك وان ابيت نزعت الجارية منك رغماً ودفعتها اليه فتمنع ثم قال آترامى فلما قرب من الباب ونظر الى الهوى تحته رجع القهقرى فقال له الملك هو والله ماقلت فهم ثم نكل فلما لم يقدم قال له الملك لاتتلاعب بنا ياغلمان خذوا بيديه وارموا به الى الارض فلما رأى العزيمة قال ايها الملك قد طابت نفسي بالجارية فقال له جزاك الله خيراً فاشتراها منه ودفعها الى بائعها وانصرفا

﴿ باب قبح المعصية ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى وكثير من الناس يطيعون انفسهم ويعصون عقولهم ويتبعون اهواءهم ويرفضون اديانهم ويتجنبون ما حض الله تعالى عليه ورتبه في الالباب السابقة من العفة وترك المعاصي ومقارعة الهوى ويخالفون الله ربهم ويوافقون ابليس فيما يحبه من الشهوة المعطبة فيواقعون المعصية في حبهم وقد علمنا ان الله عز وجل ركب في الانسان طبيعتين متضادتين احداهما لاتشير الا بخير ولاتحض الا على حسن ولايتصور فيها الا كل امر مرضي وهي العقل وقائده العدل والثانية ضد لها لاتشير الا الى الشهوات ولاتقود الا الى الردى وهي النفس وقائدها الشهوة والله تعالى يقول ﴿ ان النفس لأمارة بالسوء ﴾ وكني بالقلب عن العقل فقال ﴿ ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد ﴾ وقال تعالى ﴿ وحبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم ﴾ وخاطب اولى الالباب فهاتان الطبيعتان قطبان في الانسان وهما قوتان من قوى الجسد الفعال بهما ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العلويين ففي كل جسد منهما حظه على قدر مقابلته لها في تقدير الواحد الصمد تقدست اسماؤه حين خلقه وهيأه . فهما يتقابلان ابداً ويتنازعان دأباً فاذا غلب العقل

النفس ارتدع الانسان وقمع عوارضه المدخولة واستضاء بنور الله واتبع العدل. واذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة ولم يصح الفرق بين الحسن والقبيح وعظم الالتباس وتردى في هوة الردى ومهواة الهلكة وبهذا حسن الامر والنهي ووجب الاكتمال وصح الثواب والعقاب واستحق الجزاء . والروح واصل بين هاتين الطبيعتين وموصل مابينهما وحامل الالتقاء بهما . وان الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم الامع طول الرياضة وصحة المعرفة ونفاذ التمييز ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن ومداخلة الناس جملة والجلوس في البيوت ، وبالحرا ان تقع السلامة المضمونة او يكون الرجل حصوراً لا ارب له في النساء ولاجارحة له تعينه عليهن قديماً وورد ﴿ من وقى شر لقلقه وقبقبه وذبذبه فقد وقى شر الدنيا بحذافيرها ﴾ . واللقلق اللسان والقبقب البطن والذبذب الفرج ولقد اخبرني ابو حفص الكاتب هو من ولد روح بن زنباع الجذامي انه سمع بعض المتسمين باسم الفقه من اهل الرواية المشاهير. وقد سئل عن هذا الحديث فقال القبقبة البطيخ . وحدثنا احمد ابن محمد بن احمد ، ثنا وهب بن مسرة ومحمد بن ابى دليم عن محمد بن وضاح عن يحيي بن يحيي عن مالك بن انس عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث طويل ﴿ من وقاه الله شر اثنتين دخل الجنة ﴾ فسئل عن ذلك فقال ﴿ مابين لحييه ومابين رجليه ﴾ واني لاسمع كثيراً ممن يقول : الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء فاطيل العجب من ذلك وان لي قولا لاحول عنه : الرجال والنساء في الجنوح الى هذين الشيئين سواء ومارجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم من مانع الا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي واستفزه الحرص وتغوله الطمع وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة الا وأمكنته حتما مقضياً وحكماً نافذاً لامحيد عنه البتة

ولقد اخبرني ثقة صدق من اخواني من اهل التام في الفقه والكلام والمعرفة

وذو صلابة في دينه انه احب جارية نبيلة ادبية ذات جمال بارع قال فعرضت لها فنفرت ثم عرضت فأبت فلم يزل الامر يطول وحبها يزيد وهي مما لاتطبع البتة الى ان حملني فرط حبي لها مع عمي الصبي على ان نذرت اني متى نلت منها مرادي ان اتوب الى الله توبة صادقة قال فما مرت الايام والليالي حتى اذعنت بعد شماس ونفار فقلت له ابا فلان وفيت بعهدك فقال اي والله فضحكت وذكرت بهذه الفعلة ما لم يزل يتداول اسماعنا من ان في بلاد البربر التي تجاور اندلسنا يتوب (١) الفاسق على انه اذا قضى وطره ممن اراد ان يتوب الى الله، فلا يمنع من ذلك وينكرون على من تعرض له بكلمة ويقولون له أتحرم رجلاً مسلما التوبة. قال ولعهدي بها تبكي وتقول والله لقد بلغتني مبلغاً ماخطر قط لي ببال ولاقدرت ان اجيب اليه احداً. ولست ابعد ان يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً واعوذ بالله ان اظن غير هذا واني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة اعني الصلاح غلطاً بعيداً والصحيح في حقيقة تفسيرها ان الصالحة من النساء هي التي اذا ضبطت انضبطت واذا قطعت عنها الذرائع امسكت والفاسدة هي التي اذا ضبطت لم تنضبط واذا حيل بينها وبين الاسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في ان تتوصل اليها بضروب من الحيل. والصالح من الرجال من لايداخل اهل الفسوق ولا يتعرض من المناظرة الجالبة للاهواء ولا يرفع طرفه الى الصور البديعة التركيب والفاسق من يعاشر اهل النقص وينشر بصره الى الوجوه البديعة الصنعة ويتصدى للمشاهد المؤذية ويحب الخلوات المهلكات. والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لاتحرق من جاورها الا بان تحرك والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء. واما مرأة مهملة ورجل متعرض فقد هلكا وتلفا. ولهذا حرم على المسلم الالتذاذ بسماع

---

(١) لعلها (يتعهد) او مافي معناها

نغمة امرأة اجنبية وقد جعلت النظرة الاولى لك والاخرى عليك . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد افطر ﴾ وان في ماورد من النهي عن الهوى بنص التنزيل لشيئا مقنعاً وفي ايقاع هذه الكلمة اعني الهوى اسماً على معان واشتقاقها عند العرب وذلك دليل على ميل النفوس وهويها الى هذه المقامات . وان المتمسك عنها مقارع لنفسه محارب لها

وشيء اصفه لك تراه عياناً وهو اني مارأيت قط امرأة في مكان تحس ان رجلاً يراها او يسمع حسها الا واحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل واتت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيها ظاهراً عليها لاخفاء به . والرجال كذلك اذا احسوا بالنساء . واما اظهار الزينة وترتيب المشي وايقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة فهذا اشهر من الشمس في كل مكان والله عز وجل يقول ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ وقال تقدست اسماؤه ﴿ ولايضربن بارجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن ﴾ فلولا علم الله عز وجل برقة اغماضهن في السعي لايصال حبهن الى القلوب ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى وهذا حد التعرض فكيف بما دونه

ولقد اطلعت من سر معتقد الرجال والنساء في هذا على امر عظيم واصل ذلك اني لم احسن قط باحد ظناً في هذا الشأن مع غيرة شديدة ركبت في .

وحدثنا ابو عمرو احمد بن محمد بن احمد ، ثنا احمد ، ثنا محمد بن علي ابن رفاعة ، حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا ابو عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ﴿ الغيرة من الايمان ﴾ فلم ازل باحثاً عن اخبارهن كاشفاً عن اسرارهن وكن قد أنسن مني بكتمان فكن يطلعنني

على غوامض امورهن ولولا ان اكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منها لاوردت من تنبههن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الالباء

واني لاعرف هذا واتقنه ومع هذا يعلم الله وكفى به عليما اني بريء الساحة سليم الاديم صحيح البشرة نقي الحجرة واني اقسم بالله اجل الاقسام اني ماحللت مئزري على فرج حرام قط ولايحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت الى يومي هذا والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقي

حدثنا القاضي ابو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حجاف المعافري — وانه لافضل قاض رأيته — عن محمد بن ابراهيم الطليطلي عن القاضي بمصر بكر بن العلاء في قول الله عز وجل ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ ان لبعض المتقدمين فيه قولا وهو ان المسلم يكون مخبراً عن نفسه بما انعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه التي هي من اعظم النعم ولاسيما في المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه وكان السبب فيما ذكرته اني كنت وقت تأجج نار الصبي وشرة الحداثة وتمكن غرارة الفتوة مقصوراً محظراً على بين رقباء ورقائب ، فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت ابا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس ابا القاسم عبد الرحمن بن ابي يزيد الازدي شيخنا واستاذي رضي الله عنه وكان ابو علي المذكور عاقلا عاملا عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا واد . . الاخرة واحسبه كان حصوراً لانه لم تكن له امرأة قط ومارأيت مثله جملة علماً وعملاً وديناً وورعاً فنفعني الله به كثيراً وعلمت موقع الاساءة وقبح المعاصي . ومات ابو علي رحمه الله في طريق الحج

ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الازمان عند امرأة من بعض معارفي مشهورة بالصلاح والخير والحزم ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمها معي النشأة في الصبي ثم غبت عنها اعواماً كثيرة . وكنت تركتها حين اعصرت (١)

---

(١) في الاصل « اعمرت » والصواب ماصححناه

ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فاشرقت وتوقدت وانبعثت في خديها ازاهير الجمال فنمت واعتمت فاتت كما اقول :

خريدة صاغها الرحمن من نور   جلت ملاحتها عن كل تقدير
لوجاءني عملي في حسن صورتها   يوم الحساب ويوم النفخ في الصور
لكنت أحظى عباد الله كلهم   بالجنتين وقرب الخرد الحور

وكانت من اهل بيت صباحة وقد ظهرت منها صورة تعجز الوصاف ، وقد طبق وصف شبابها قرطبة فبت عندها ثلاث ايال متوالية ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية فلعمري لقد كاد قلبي ان يصبو ويثوب اليه مرفوض الهوى ويعاوده منسي الغزل ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لبي ان يزدهيه الاستحسان . ولقد كانت هي وجميع اهلها ممن لاتتعدى الاطماع اليهن ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل وفي ذلك اقول :

لاتتبع النفس الهوى   ودع التعرض للمحن
ابليس حي لم يمت   والعين باب للفتن

واقول :

وقائل لي هذا   ظن يريدك غيا
فقلت دع عنك لومي   أليس ابليس حيا

وما اورد الله تعالى علينا من قصة يوسف بن يعقوب وداود بن ايشي رسل الله عليهم السلام الا ليعلمنا نقصاننا وفاقتنا الى عصمته وان بنيتنا مدخولة ضعيفة فاذا كانا صلى الله عليهما وهما نبيان رسولان ابناء انبياء رسل ومن اهل بيت نبوة ورسالة متكررين في الحفظ مغموسين في الولاية محفوفين بالكلاءة مؤيدين بالعصمة لايجعل للشيطان عليهما سبيل ولا فتح لوسواسه نحوهما طريق وبلغا حيث نص الله عز وجل علينا في قرآنه المنزل بالجبلة الموكلة والطبع البشري

والخلقة الاصيلة لايتعمد الخطيئة ولا القصد اليها اذ النبيون مبرؤون من كل ما خالف طاعة الله عز وجل لـكنه استحسان طبيعي في النفس للصور فمن ذا الذي يصف نفسه بملـكها ويتعاطى ضبطها الا بحول الله وقوته . واول دم سفك في الارض فدم احد ابني آدم على سبب المنافسة في النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ﴿ باعدوا بين انفاس الرجال والنساء ﴾ وهذه امرأة من العرب تقول وقد حبلت من ذي قرابة لها حين سئلت : مابطنك ياهند فقالت قرب الوساد وطول السواد . وفي ذلك اقول شعراً منه :

لاتلم من عرض النفس لما　　ليس يرضى غيره عند المحن
لا تقرب عرفجاً من لهب　　ومتى قربتـه قامت دخن
لا تصرف ثقـة في احـد　　فسد النـاس جميعاً والزمن
خلق النسوان للفحل كما　　خلق الفحـل بلا شك لهن
كل شكل يتشهى شكـله　　لاتكن عن احد تنفي الظنن
صفة الصالح من ان صنته　　عن قبيح اظهر الطوع الحسن
وسواه من اذا ثقفتـه　　اعمل الحيلة في خلع الرسن

واني لاعلم فتى من اهل الصيانة قد اولع بهوى له فاجتـاز ببعض اخوانه فوجده قاعداً مع من كان يحب فاستجلبه الى منزله فاجابه الى منزله بامتثـال المسير بعده فقضى داعيه الى منزله وانتظره حتى طال عليه التربص فلم يأته فلما كان بعد ذلك اجتمع به داعيه فعدد عليه واطال لومه على اخلافه موعده فاعتذر وورى فقلت انا للذي دعاه انا اكشف عذره صحيحاً من كتاب الله عز وجل اذ يقول ﴿ ما أخلفنا موعدك بملـكنا ولـكنا حملنا اوزاراً من زينة القوم ﴾ . فضحك من حضر وكلفت ان اقول في ذلك شيئاً فقلت :

وجرحك لي جرح جبار فلاتلم　　ولـكن جرح الحب غير جبار
وقدصارت الخيلان وسط بياضه　　كنيلوفر حفته روض بهار

وكم قال لي من مت وجداً بحبه مقالة محلول المقالة زاري
وقد كثرت مني اليه مطالب أخ عليه تارة وأداري
أما في التوائي مايبرد غلة ويذهب شوقاً في ضلوعك ساري
فقلت له لو كان ذلك لم تكن عداوة جار في الانام لجار
وقد تتراءى العسكران لدى الوغى وبينهما للموت سبل بوار

ولي كلمتان قلتهما معرضاً بل مصرحاً برجل من اصحابنا كنا نعرفه كلنا من اهل الطلب والعناية والورع وقيام الليل واقتفاء آثار النساك وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء باحثاً مجتهداً ولقد كنا نتجنب المزاح بحضرته فلم يمض الزمن حتى مكن الشيطان من نفسه وفتك بعد لباس النساك وملك ابليس من خطامه فسول له الغرور وزين له الويل والثبور وأجره رسنه بعد اباء واعطاه ناصيته بعد شماس فخب في طاعته واوضع واشتهر بعد ماذكرته في بعض المعاصي القبيحة الوضرة ولقد اطلت ملامه وتشددت في عذله اذ اعلن بالمعصية بعد استتار الى ان افسد ذلك ضميره علي وخبثت نيته لي وتربص في الدوائر السؤ وكان بعض اصحابنا يساعده بالكلام استجراراً اليه فيأنس به ويظهر له عداوتي الى ان اظهر الله سريرته فعلمها البادي والحاضر وسقط من عيون الناس كلهم بعد ان كان مقصداً للعلماء ومنتاباً للفضلاء ورذل عند اخوانه جملة اعاذنا الله من البلاء وسترنا في كفايته ولاسلبنا مابنا من نعمته فيآسؤناه لمن بدأ بالاستقامة ولم يعلم ان الخذلان يحل به وان العصمة ستفارقه لا اله الا الله ما اشنع هذا وافظعه لقد دهمته احدى بنات الحرس والفت عصاها به ام طبق من كان لله اولاً ثم صار للشيطان آخراً ومن احدى الكلمتين :

اما الغلام فقد حانت فضيحته وانه كان مستوراً فقد هتكا
مازال يضحك من اهل الهوى عجباً فالآن كل جهول منه قد ضحكا
اليك لاتلح صباً هائماً كلفاً يرى التهتك في دين الهوى نسكا

ذو محبر وكتاب لايفارقه ... نحو المحدث يسعى حيث ماسلكا
فاعتاض من سمر اقلام بنان فتى ... كأنه من لجين صيغ او سبكا
يا لائمي سفهاً في ذاك قل فلم ... تشهد جبينين يوم الملتقى اشتبكا
دعني ووردي في الآبار اطلبه ... اليك عني كذا لاابتغي البركا
اذا تعففت عف الحب عنك وان ... تركت يوماً فان الحب قد تركا
ولا تحل من الهجران منعقداً ... الا اذا ماحللت الازر والتككا
ولاتصحح للسلطان مملكة ... اوتدخل البرد عن انفاذه السككا
ولا بغير كثير المسح يذهب ما ... يعلو الحديد من الاصداء ان سبكا

وكان هذا المذكور من اصحابنا قد احكم القرآآت احكاماً جيداً واختصر كتاب الانبارى في الوقف والابتداء اختصاراً حسناً اعجب به من رآه من المقرئين وكان دائباً على طلب الحديث وتقييده (واكثر ذهنه) هو المتولى لقرآءة مايسمعه على الشيوخ المحدثين مثابراً على النسخ مجتهداً به فلما امتحن بهذه البلية مع بعض الغلمان رفض ما كان معتنياً به وباع اكثر كتبه واستحال استحالة كلية نعوذ بالله من الخذلان وقلت فيه كلمة وهي التالية للكلمة التي ذكرت منها في اول خبره ثم تركتها وقد ذكر ابو الحسين احمد بن يحيى ابن اسحق الرويدي في كتاب اللفظ والاصلاح ان ابراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة مع علو طبقته في الكلام وتمكنه وتحكمه في المعرفة تسبب الى ماحرم الله عليه من فتى نصراني عشقه بان وضع له كتاباً في تفضيل التثليث على التوحيد فياغوثاه عياذك يارب من تولج الشيطان ووقوع الخذلان وقد يعظم البلاء وتكلب الشهوة ويهون القبيح ويرق الدين حتى يرضى الانسان في جنب وصوله الى مراده بالقبائح والفضائح كمثل مادهم عبيد الله بن يحيى الازدي المعروف بابن الجزيري فانه رضي باهمال داره واباحة حريمه والتعرض بأهله طمعاً في الحصول على بغيته من فتى كان علقه نعوذ بالله من الضلال ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا

واطابة اخبارنا حتى لقد صار المسكين حديثاً تعمر به المحافل وتصاغ فيه الاشعار وهو الذي تسميه العرب الديوث (وهو مشتق من التديث .وهو التسهيل ومابعد تسهيل من تسميح نفسه بهذا الشأن تسهيل ومنه بعير مديث اي مذال) ولعمري ان الغيرة لتوجد في الحيوان بالخلقة فكيف وقد أكدتها عندنا الشريعة وما بعد هذا مصاب . ولقد كنت اعرف هذا المذكور مستوراً الى ان استهواه الشيطان ونعوذ بالله من الخذلان ، وفيه يقول عيسي بن محمد ابن محمل الخولاني :

يا جاعلاً اخراج حر نسائه شركاً لصيد جآذر الغزلان
اني أرى شركا يمزق ثم لا تحظى بغير مذلة الحرمان

واقول انا ايضاً :

أباح ابو مروان حر نسائه ليبلغ مايهوى من الرشاء الفرد
فعاتبته الديوث في قبح فعله فأنشدني انشاد مستبصر جلد
لقد كنت ادركت المنى غير أنني يعيرني قومي بادرا كها وحدي

واقول ايضاً :

رأيت الجزيري فيما يعاني قليل الرشاد كثير السفاه
يبيع ويبتاع عرضاً بعرض أمور وجدك ذات اشتباه
ويأخذ ميماً باعطاء هاء الاهكذا فليكن ذوالنواهي
ويبدل ارضاً تغذي النبات بأرض تحف بشوك العضاه
لقدخاب في تجره ذو ابتياع مهب الرياح بمجرى المياه

ولقد سمعته في المسجد الجامع يستعيذ بالله من العصمة كما يستعاذ به من الخذلان ومما يشبه هذا اني اذكر اني كنت في مجلس فيه اخوان لنا عند بعض مياسير اهل بلدنا فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة ايضاً من اهل صاحب المجلس امراً انكرته وغمزاً استبشعته وخلوات الحين بعد الحين

وصاحب المجلس كالغائب او النائم فنبهته بالتعريض فلم ينتبه وحركته بالتصريح فلم يتحرك فجعلت اكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن وهما هذان :

ان اخوانه المقيمين بالأمـ   ـس أتوا للزناء لا للغنـاء
قطعوا امرهم وانت حمار   موقر من بلادة وعيـاء

واكثرت من انشادهن حتى قال لي صاحب المجلس قد امللتنا من سماعها فتفضل بتركها او انشاد غيرها فامسكت وانا لا ادري أغافل هو ام متغافل وما اذكر اني عدت الى ذلك المجلس بعدها وقلت فيه قطعة منها :

انت لاشك احسن الناس ظناً   ويقينـاً ونيـة وضميـرا
فانتبه ان بعض من كان بالام   س جليساً لنـا يعاني كبيراً
ليس كل الركوع فاعلم صلاة   لا ولا كل ذي لحـاظ بصيراً

وحدثني ثعلب بن موسى الكلاذاني قال حدثني سليمان بن احمـد الشاعر قال حدثتني امرأة اسمها هند كنت رأيتها في المشرق وكانت قد حجت خمس حجات وهي من المتعبدات المجتهدات قال سليمان فقالت لي يا ابن اخي لاتحسن الظن بامرأة قط فاني اخبرك عن نفسي بما يعلمه الله عز وجل . ركبت البحر منصرفة من الحج وقد رفضت الدنيا وانا خامسة خمس نسوة كلهن قد حججن وصرنا في مركب في بحر القلزم (١) وان للشعراء من لطف التعريض عن الكناية لعجباً ومن بعض ذلك قولي حيث اقول :

أماني وماء المزن في الجو يسفك   كمحض لجين اذ يمد ويسبك
هلال الدياجي الحطمن جو افقه   فقل في محب ذل ماليس يدرك
وكان الذي ان كنت لي عنه سائلا   فمالي جواب غير اني أضحك
افرط سروري ختني عنه نائماً   فيا عجبـاً من موقن يتشكك

(١) ثم ذكرت قصة تحمل على اساءة الظن بالمرأة

واقول ايضاً قطعة منها :

أتيتني وهلال الجو مطلع   قبيل قرع النصارى للنواقيس
كحاجب الشيخ عم الشيب اكثره   وأخمص الرجل في لطف وتقويس
ولاح في الافق قوس الله مكتسياً   من كل لون كأذناب الطواويس

وان فيا يبدو اليناً من تعادي المتواصلين في غير ذات الله تعالى بعد الالفة وتدابرهم بعد الوصال وتقاطعهم بعد المودة وتباغضهم بعد المحبة واستحكام الضغائن وتأكد السخائم في صدورهم لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولا سليمة وآراء نافذة وعزائم صحيحة فكيف بما اعدالله لمن عصاه من النكال الشديد يوم الحساب وفي دار الجزاء ومن الكشف على رؤوس الخلائق ﴿ يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ جعلنا الله ممن يفوز برضاه ويستحق رحمته ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل فعهدتها اصفى من الماء وألطف من الهواء واثبت من الجبال واقوى من الحديد واشد امتزاجاً من اللون في الملون وانفذ استحكاماً من الاعراض في الاجسام واضوأ من الشمس واصح من العيان واثقب من النجم واصدق من كدر القطا واعجب من الدهر واحسن من البر واجمل من وجه ابي عامر والذ من العافية واحلى من المنى وادنى من النفس واقرب من النسب وارسخ من النقش في الحجر ثم لم البث ان رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة افظع من الموت وانفذ من السهم وامر من السقم واوحش من زوال النعم واقبح من حلول النقم وامضى من عقم الرياح واضر من الحمق وادهى من غاية العدو واشد من الاسر واقسى من الصخر وابغض من كشف الاستار وانأى من الجوزاء واصعب من معاناة السماء واكبر من رؤية المصاب واشنع من خرق العادات واقطع من فجأة البلاء وابشع من السم الزعاف وما لايتولد مثله عن الدخول والتراث وقتل الآباء وسبي الامهات وتلك عادة الله

في اهل الفسق القاصدين سواه الآمين غيره وذلك قوله عز وجل ﴿ ياليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني ﴾ فيجب على اللبيب الاستجارة بالله مما يورط فيه الهوى فهذا خلف مولى يوسف بن قمقام القائد المشهور كان احد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر فلما اسر هشام وقتل وهرب الذين وازروه فر خلف في جملتهم ونجا فلما اتى القسطلات لم يطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة فكر راجعاً فظفر به امير المؤمنين المهدي فامر بصلبه فلعهدي به مصلوباً في المرج على النهر الاعظم وكأنه القنفذ من النبل ولقد اخبرني ابو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث رحمه الله ان سبب هروبه الى محلة البرابر ايام تحولهم مع سليمان الظافر انما كان لجارية يكلف بها تصيرت عند بعض من كان في تلك الناحية ولقد كاد ان يتلف في تلك السفرة وهذان الفصلان وان لم يكونا من جنس الباب فانهما شاهدان على مايقود اليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر الذي يستوي في فهمه العالم والجاهل فكيف من العصمة التي لايفهمها من ضعفت بصيرته ولايقولن امرء خلوت فهو وان انفرد فبمرأى ومسمع من علام الغيوب ﴿ الذي يعلم خائنة الاعين وماتخفي الصدور ﴾ ﴿ ويعلم السر وأخفى ﴾ ﴿ وما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولاخمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا وهو عليم بذات الصدور ﴾ وهو عالم الغيب والشهادة ﴿ ويستخفون من الناس ولايستخفون من الله وهو معهم ﴾ وقال ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ﴾ وليعلم المستخف بالمعاصي المتكل على التسويف المعرض عن طاعة ربه ان ابليس كان في الجنة مع الملائكة المقربين فمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنة الابد وعذاب الخلد وصير شيطاناً رجيا وابعد عن رفيع المكان وهذا آدم صلى الله عليه وسلم بذنب واحد اخرج من الجنة الى شقاء

الدنيا ونكدها ولولا انه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين افترى هذا المغتر بالله ربه وبأملائه ليزداد إثماً يظن انه اكرم على خالقه من ابيه آدم الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه واسجد لهم ملائكته الذين هم افضل خلقه عنده او عقابه اعز عليه من عقوبته اياه ، كلا ولكن استعذاب التمني واستبطاء مركب العجز وسخف الرأي قائدة اصحابها الى الوبال والخزي ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نهي الله تعالى ولاحام من غليظ عقابه لكان في قبيح الاحدوثة عن صاحبه وعظيم التظلم الواقع في نفس فاعله اعظم مانع واشد رادع لمن نظر بعين الحقيقة واتبع سبيل الرشد فكيف والله عز وجل يقول ﴿ ولايقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً ﴾ حدثنا الهمداني في مسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة سنة احدى واربعمائة حدثنا ابن سبويه وابو اسحق البلخي بخراسان سنة خمس وسبعين وثلاثمائة قالا ثنا محمد ابن يوسف ثنا محمد بن اسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جرير عن الاعمش عن ابي وائل عن عمرو بن شرحبيل قال قال عبد الله وهو ابن مسعود قال رجل يارسول الله اي الذنب اكبر عند الله قال ﴿ ان تدعو لله نداً وهو خالقك قال ثم اي قال ان تقتل ولدك ان يطعم معك قال ثم اي قال ان تزاني حليلة جارك ﴾ فانزل الله تصديقها ﴿ والذين لايدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولايزنون ﴾ الآية . وقال عز وجل ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله ﴾ الآية . حدثنا الهمداني عن ابي اسحق البلخي وابن سبويه عن محمد بن يوسف عن محمد بن اسماعيل عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب الزهري عن ابي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام وسعيد بن المسيب المخزوميين وابي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ان رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال ﴿ لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ﴾ وبالسند المذكور الى محمد ابن اسماعيل عن يحي بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن ابي سلمة وسعيد بن المسيب عن ابي هريرة قال اتى رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فقال : ﴿ يا رسول الله اني زنيت فاعرض عنه ثم رد عليه اربع مرات فلما شهد على نفسه اربع شهادات دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبك جنون قال لا قال فهل احصنت قال نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اذهبوا به فارجموه ﴾ قال ابن شهاب فاخبرني من سمع جابر بن عبد الله قال كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى فلما اذلقته الحجارة هرب فادركناه بالحرة فرجمناه حدثنا ابو سعيد مولى الحاجب جعفر في المسجد الجامع بقرطبة عن ابي بكر المقريء عن ابي جعفر النحاس عن سعيد بن بشر عن عمرو ابن رافع عن منصور عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ﴿ خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد وتغريب سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ﴾ فيا لشنعة ذنب انزل الله وحيه مبيناً بالتشهير بصاحبه والعقب بفاعله والتشديد لمقترفه وتشدد في ان لايرجم الا بحضرة اوليائه عقوبة رجمه وقد اجمع المسلمون اجماعاً لاينقضه الا ملحد أن الزاني المحصن عليه الرجم حتى يموت فيالها قتلة ما اهولها وعقوبة ما افظعها واشدعذابها وابعدها من الاراحة وسرعة الموت وطوائف من اهل العلم منهم الحسن بن ابي الحسن وابن راهويه وداوود واصحابه يرون عليه مع الرجم جلد مائة ويحتجون عليه بنص القرآن وثبات السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبفعل علي رضي الله عنه بانه رجم امرأة محصنة في الزنا بعد ان جلدها مائة وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله والقول بذلك لازم لاصحاب الشافعي لان زيادة العدل في الحديث مقبولة وقد صح في اجماع الامة المنقول بالكافة الذي يصحبه العمل عند كل فرقة وفي اهل

كل نحلة من نحل اهل القبلة حاشى طائفة يسيرة من الخوارج لايعتد بهم انه لايحل دم امريء مسلم الا بكفر بعد ايمان او نفس بنفس او بمحاربة لله ورسوله يشهر فيها سيفه ويسعى في الارض فساداً مقبلاً غير مدبر وبالزنا بعد الاحصان فان حد ماجعل الله مع الكفر بالله عز وجل ومحاربته وقطع حجته في الارض ومنابذته دينه لجرم كبير ومعصية شنعاء والله تعالى يقول ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ . ﴿ والذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة ﴾ وان كان اهل العلم اختلفوا في تسميتها فكلهم مجمع مهما اختلفوا فيه منها ان الزنا يقدم فيها لا اختلاف بينهم في ذلك ولم يوعد الله عز وجل في كتابه بالنار بعد الشرك الا في سبع ذنوب وهي الكبائر الزنا احدها وقذف المحصنات ايضاً منها منصوصاً ذلك كله في كتاب الله عز وجل وقد ذكرنا انه لايجب القتل على احد من ولد آدم الافي الذنوب الاربعة التي قد تقدم ذكرها فاما الكفر منها فان عاد صاحبه الى الاسلام او بالذمة ان لم يكن مرتداً قبل منه ودريء عنه الموت واما القتل فان قبل الولي الدية في قول بعض الفقهاء او عفا في قول جميعهم سقط عن القاتل القتل بالقصاص واما الفساد في الارض فان تاب صاحبه قبل ان يقدر عليه هدر عنه القتل ولاسبيل في قول احد موافق او مخالف في ترك رجم المحصن ولاوجه لرفع الموت عنه البتة ومما يدل على شنعة الزنا ماحدثنا القاضي ابو عبد الرحمن ثنا القاضي ابو عيسى عن عبد الله بن يحيى عن ابيه يحيى بن يحيى عن الليث عن الزهري عن القاسم بن محمد بن ابي بكر عن عبيد بن عمير ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اصاب في زمانه ناساً من هذيل فخرجت جارية منهم فاتبعها رجل يريدها عن نفسها فرمته بحجر ففضت كبده فقال عمرو : هذا قتيل الله والله لا يؤدى ابداً .

وما جعل الله عز وجل فيه اربعة شهود وفي كل حكم شاهدين الا حياطة

عنه الا تشيع الفاحشة في عباده لعظمها وشنعتها وقبحها وكيف لاتكون شنيعة ومن قذف بها اخاه المسلم او اخته المسلمة دون صحة علم او تيقن معرفة فقد اتى كبيرة من الكبائر استحق عليها النار غداً ووجب عليه بنص التنزيل ان تضرب بشرته ثمانين صوتاً ومالك رضي الله عنه يرى ان لايؤخذ في شيء من الاشياء حد بالتعريض دون التصريح الا في قذف وبالسند المذكور عن الليث بن سعد عن يحي بن سعيد عن محمد بن عبد الرحمن عن امه عمرة بنت عبد الرحمن عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه امر ان يجلد الرجل قال لآخر ما ابي بزان ولا امي بزانية في حديث طويل وباجماع من الامة كلها دون خلاف من احد نعلمه انه اذا قال رجل لآخر ياكافر او ياقاتل النفس التي حرم الله لما وجب عليه حد احتياطاً من الله عز وجل الا يثبت هذه العظيمة في مسلم ولا مسلمة ومن قول مالك رحمه الله ايضاً انه لاحد في الاسلام الا والقتل يغني عنه وينسخه الا حد القذف فانه ان وجب على من قد وجب عليه القتل حد ثم قتل قال الله تعالى ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً واولئك هم الفاسقون الاالذين تابوا ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ﴾ وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : الغضب واللعنة المذكوران في اللعان انهما موجبتان

حدثنا الهمداني عن ابي اسحق عن محمد بن يوسف عن محمد بن اسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله قال ثنا سليمان عن ثور بن يزيد عن ابي الغيث عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : ﴿ اجتنبوا السبع الموبقات قالوا وماهن يارسول الله قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق واكل الربى واكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾

وان في الزنا من اباحة الحريم وافساد النسل والتفريق بين الازواج الذي عظم الله امره مالايهون على ذي عقل او من له اقل خلاق ولولا مكان هذا العنصر من الانسان وانه غير مأمون الغلبة لما خفف الله عن البكرين وشدد على المحصنين . وهذا عندنا وفي جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل حكماً باقياً لم ينسخ ولا ازيل فيترك الناظر لعباده الذي لم يشغله عظيم ما في خلقه ولايحيف قدرته كبير ما في عوالمه عن النظر لحقير ما فيها فهو كما قال عز وجل (الحي القيوم لاتأخذه سنة ولانوم) وقال (يعلم مايلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء ومايعرج فيها) (عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء)

وان اعظم ما يأتي به العبد هتك ستر الله عز وجل في عباده وقد جاء في حكم ابي بكر الصديق رضي الله عنه في ضربه الرجل الذي ضم صبياً حتى امنى ضرباً كان سبباً للمنية ومن اعجاب مالك رحمه الله باجتهاد الامير الذي ضرب صبياً مكن رجلا من تقبيله حتى امني الرجل ضربه الى ان مات ماينسي شدة دواعي هذا الشأن واسبابه . والتزيد في الاجتهاد وان كنا لانراه فهو قول كثير من العلماء يتبعه على ذلك عالم من الناس واما الذي نذهب اليه فالذي حدثناه الهمداني عن البلخي عن البخاري عن الفربري عن البخاري قال ثنا يحيى بن سليمان ثنا ابن وهب قال اخبرني عمرو ان بكيراً حدثه عن سليمان بن يسار عن عبد الرحمن بن جابر عن ابيه عن ابي بردة الانصاري قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا يجلد فوق عشرة اسواط الا في حد من حدود الله عز وجل) وبه يقول ابو جعفر محمد بن علي النسائي الشافعي رحمه الله .

واما فعل قوم لوط فشنيع بشيع قال الله تعالى : (أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من احد من العالمين) وقد قذف الله فاعليه بحجارة من طين مسومة .

ومالك رحمه الله يرى على الفاعل والمفعول به الرجم احصنا اولم يحصنا واحتج بعض المالكيين في ذلك بان الله عز وجل يقول في رجمه فاعليه بالحجارة : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ فوجب بهذا انه من ظلم الآن بمثل فعلهم قربت منه . والخلاف في هذه المسألة ليس هذا موضعه وقد ذكر ابو اسحق ابراهيم بن السري ان ابا بكر رضي الله عنه احرق فيه بالنار وذكر ابو عبيدة معمر ابن المثنى اسم المحرق فقال هو شجاع بن ورقاء الاسدي احرقه بالنار ابو بكر الصديق لانه يؤتى في دبره كما تؤتى المرأة (١)

وان عن المعاصي لمذاهب للعقل واسعة فما حرم الله شيئاً الا وقد عوض عباده من الحلال ما هو احسن من المحرم وافضل لا اله الا هو . واقول في النهي عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ :

اقول لنفسي ماهين كحالك وما الناس الا هالك وابن هالك (٢)
صن النفس عما عابها وارفض الهوى فان الهوى مفتاح باب المهالك
رأيت الهوى سهل المبادي لذيذها وعقباه مر الطعم ضنك المسالك

---

(١) قال ابن قيم الجوزيه في كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) صفحة ٣٩٧ طبع المكتبة العربية بدمشق مانصه :

وحرق اللوطية بالنار اربعة من الخلفاء ابو بكر الصديق وعلي بن ابي طالب وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك

(٢) قال ابن خلكان :

رأيت في بعض الكتب ان المأمون كان يقول لو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل قول ابي نواس :

الا كل حي هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

فما لذة الانسان والموت بعدها ... ولو عاش ضعفي عمر نوح بن لامك
فلا تتبع داراً قليلاً لباثها ... فقد انذرتنا بالفناء المواشك
وما تركها الا اذا هي امكنت ... وكم تارك اضماره غير تارك
فما تارك الآمال عجباً جزاذراً ... كتارك ذات الضروع الحواشك
ومقابل الامر الذي كان راغباً ... بشهوة مشتاق وعقل مبارك
لاحدي عباد الله بالفوز عنده ... لدى جنة الفردوس فوق الارائك
ومن عرف الامر الذي هو طالب ... رأى سبباً ما في يدي كل مالك
ومن عرف الرحمن لم يعص أمره ... ولو انه يعطى جميع الممالك
سبيل التقى والنسك خير المسالك ... وسالكها مستبصر خير سالك
فما فقد التنغيص من عاج دونها ... ولا طاب عيش لامرىء غير ماسك
وطوبى لأقوام يؤمون نحوها ... بخفة ارواح ولين عرائك
لقد فقدوا غل النفوس وفضلوا ... بعز سلاطين وامن صعالك
فعاشوا كما شاؤوا وماتوا كما اشتهوا ... وفازوا بدار الخلد رحب المبارك
عصوا طاعة الاجساد في كل لذة ... بنور محل ظلمة الغى هاتك
ولا اعتداء (١) الجسم ايقنت انهم ... يعيشون عيشاً مثل عيش الملائك
فرب قدمهم وزد في صلاحهم ... وصل عليهم حيث حلوا وبارك
فيا نفس جدي لاتملي وشمري ... لنيل سرور الدهر فيما هنالك
فيا متى دمرت سعيك في الهوى ... علمت بان الحق ليس كذلك
فقد بين الله الشريعة للورى ... باَبين من زهر النجوم الشوابك
فيا نفس جدي في خلاصك وانفذي ... نفاذ السيوف المرهفات البواتك
فلو عمل الناس التفكر في الذي ... له خلقوا ما كان حي بضاحك

(١) كذا في الاصل ولعل الصواب اعتداد

(باب فضل التعفف)

ومن افضل مايأتيه الانسان في حبه التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة وان لا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة وان لا يعصي مولاه المتفضل عليه الذي جعله مكاناً وأهلاً لامره ونهيه وارسل اليه رسله وجعل كلامه ثابتاً لديه عناية منه بنا واحساناً الينا وان من هام قلبه وشغل باله واشتد شوقه وعظم وجده ثم ظفر فرام هواه ان يغلب عقله وشهوته وان يقهر دينه ثم اقام العدل لنفسه حصناً وعلم انها النفس الامارة بالسؤ وذكرها بعقاب الله تعالى وفكر في اجترائه على خالقه وهو يراه وحذرها من يوم المعاد والوقوف بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذي لا يحتاج الى بينة ، ونظر بعين ضميره الى انفراده عن كل مدافع بحضرة علام الغيوب (يوم لاينفع مال ولابنون الا من اتى الله بقلب سليم) (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضر وما عملت من سؤ تود لو ان بينها وبينه امداً بعيداً) (يوم عنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً) (يوم وجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك احداً) يوم الطامة الكبرى ، (يوم يتذكر الانسان ماسعى وبرزت الجحيم لمن يرى فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى) واليوم الذي قال الله تعالى فيه (وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عندها يقول العاصي (ياويلتي ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها) فكيف بمن طوى قلبه على أحر من جمر الغضا وطوى كشحه على احد من السيف وتجرع غصصاً امر من الحنظل وصرف نفسه كرهاً عما

طمعت فيه وتيقنت ببلوغه وتهيأت له ولم يحل دونها حائل لحري ان يسر غداً يوم البعث ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود وان يأمن روعات القيامة وهول المطلع وان يعوضه الله عن هذه القرحة الأمن يوم الحشر

حدثني ابو موسى هارون بن موسى الطبيب قال رأيت شاباً حسن الوجه من اهل قرطبة قد تعبد ورفض الدنيا وكان له اخ في الله قد سقطت بينهما مؤونة التحفظ فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده فعرضت لصاحب المنزل حاجة الى بعض معارفه بالبعد عن منزله فنهض لها على ان ينصرف مسرعاً ونزل الشاب في داره مع امرأته وكانت غاية في الحسن وترباً للضيف في الصبي فاطال رب المنزل المقام الى ان مشى العسس ولم يمكنه الانصراف الى منزله فلما علمت المرأة بفوات الوقت وان زوجها لايمكنه المجيء تلك الليلة تاقت نفسها الى ذلك الفتى فبرزت اليه ودعته الى نفسها ولاثالث لهما الا الله عز وجل فهم بها ثم ثاب اليه عقله وفكر في الله عز وجل فوضع اصبعه على السراج فتنفط ثم قال يانفس ذوقي هذا واين هذا من نار جهنم فهال المرأة ما رأت ثم عاودته فعاودته الشهوة المركبة في الانسان فعاد الى الفعلة الاولى فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها النار . أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ الا لفرط شهوة قد كلبت عليه اوترى ان الله تعالى يضيع له المقام كلا انه لاكرم من ذلك واعلم

ولقد حدثتني امرأة اثق بها انها علقها فتي مثلها في الحسن وعلقته وشاع القول عليهما فاجتمعا يوماً خاليين فقال هلمي نحقق مايقال فينا فقالت لاوالله لا كان هذا ابداً وانا اقرأ قول الله ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ﴾ قالت فما مضى قليل حتى اجتمعا في حلال

ولقد حدثني ثقة من اخواني انه خلا يوماً بجارية كانت له معارك في الصبي

فتعرضت لبعض تلك المعاني فقال لها كلا ان من شكر نعمة الله فيما منحني من وصالك الذي كان اقصى آمالي ان اجتنب هواي لامره . ولعمري ان هـذا لغريب فيما خلا من الازمان فكيف في مثل هذا الزمان الذي قد ذهب خيره وأتى شره وما اقدر في هذه الاخبار — وهي صحيحة — الا احد وجهين لاشك فيهما : إما طبع قد مال الى غير هذا الشأن واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه فهو لايجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ولافي يوم ولايومين ولوطال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لجادت طباعهم واجابوا هاتف الفتنة ولـكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك نظراً لهم وعلماً بما في ضمائره من الاستعاذة به من القبائح واستدعاء الرشد لا اله الا هو ، واما بصيرة حضرت في ذلك الوقت وخاطر تجرد انقمعت به طوالع الشهوة في ذلك الحين لخير اراد الله عز وجل لصاحبه جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه آمين

وحدثني ابو عبد الله محمد بن عمرو بن مضاء عن رجال من بني مروان ثقات يسندون الحديث الى ابي العباس الوليد بن غانم انه ذكر ان الامام عبد الرحمن بن الحـكم غاب في بعض غزواته شهوراً وثقف القصر بابنه محمد الذي ولي الخلافة بعده ورتبه في السطح وجعل مبيته ليلًا وقعوده نهاراً فيه ولم يأذن له في الخروج البتة ورتب معه في كل ليـلة وزيراً من الوزراء وفتى من اكابر الفتيان يبيتان معه في السطح . قال ابو العبـاس فاقام على ذلك مدة طويلة وبعد عهده باهله وهو في سن العشرين او نحوها الى ان وافق مبيتي في ليلتي نوبة فتى من أكابر الفتيان وكان صغيراً في سنه وغاية في حسن وجهـه قال ابو العباس فقلت في نفسي اني اخشى الليلة على محمد بن عبد الرحمن الهـلاك بمواقعه المعصية وتزيين ابليس واتبـاعه له قال ثم اخذت مضجعي في السطح الخارج ومحمد في السطح الداخل المطل على حرم امير المؤمنين والفتى في الطرف الثاني القريب من المطلع فظللت ارقبه ولا اغفل وهو يظن اني قد نمت ولايشعر

باضطلاعي عليه قال فلما مضى هزيع من الليـل رأيته قد قام واستوى قاعداً ساعة لطيفة ثم تعوذ من الشيطان ورجع الى منـامه ثم قام بعد حين ولبس قميصه واستوفز ثم نزعه عن نفسه وعاد الى منـامه ثم قام الثالثة ولبس قميصه ودلى رجليه من السرير وبقي كذلك ساعة ثم نادى الفتى باسمه فاجابه فقال له انزل عن السطح وابق في الفصيل الذي تحته فقام الفتى مؤتمراً له فلما نزل قام محمد واغلق الباب من داخله وعاد الى سريره قال ابو العباس فعلمت من ذلك الوقت ان لله فيه مراد خير

حدثنا احمد بن محمد بن الجسور عن احمد بن مطرف عن عبيد الله ابن يحيي عن ابيه عن ملك عن حبيب بن عبد الرحمن الانصاري عن حفص ابن عاصم عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ﴿ سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل الا ظله : امام عادل . وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه . ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا . ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال اني اخاف الله . ورجل تصدق صدقة فاخفى حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه ﴾ واني اذكر اني دعيت الى مجلس فيه بعض من تستحسن الابصار صورته وتألف القلوب اخلاقه للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه فسرعت اليه وكان هذا سحراً فبعد ان صليت الصبح واخذت زيي طرقني فكر فسنحت لي ابيات ومعي رجل من اخواني فقال لي ما هذا الاطراق فلم اجبه حتى اكملتها ثم كتبتها ودفعتها اليـه وامسكت عن المسير حيث كنت نويت ومن الابيات :

أراقك حسن غيبه لك تأريق ... وتبريد وصل سره فيك تحريق
وقرب مزار يقتضي لك فرقة ... وشيكا ولولا القرب لم يك تفريق
ولذة طعم معقب لك علقماً ... وصاباً وفسح في تضاعيفه ضيق

ولو لم يكن جزاء ولاعقاب ولاثواب لوجب علينا افناء الاعمار واتعاب الابدان واجهاد الطاقة واستنفاد الوسع واستفراغ القوة في شكر الخالق الذي ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها وامتن علينا بالعقل الذي به عرفناه ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات وصرف لنا السموات جارية بمنافعها ودبرنا التدبير الذي لو ملكنا خلقنا لم نهتد اليه ولانظرنا لانفسنا نظره لنا وفضلنا على اكثر المخلوقات وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه وخلق لنا الجنة دون ان نستحقها ثم لم يرض لعباده ان يدخلوها الا باعمالهم لتكون واجبة لهم قال الله تعالى : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ورشدنا الى سبيلها وبصرنا وجه ظلها وجعل غاية احسانه الينا وامتنانه علينا حقاً من حقوقنا قبله ودينا لازماً له وشكرنا على ما اعطانا من الطاعة التي رزقنا قواها واثابنا بفضله على تفضله هذا كرم لاتهتدي اليه العقول ولايمكن ان تكيفه الالباب ومن عرف ربه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنده اللذات الذاهبة والحطام الفاني فكيف وقد اتى من وعيده ماتقشعر لسماعه الاجساد وتذوب له النفوس واورد علينا من عذابه ما لم ينته اليه امل فاين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم وما الرغبة في لذة ذاهبة لاتذهب الندامة عنها ولاتفنى التباعة منها ولايزول الخزي عن راكبها والى كم هذا التمادي وقد اسمعنا المنادي وكأن قد حدا بنا الحادي الى دار القرار فاما الى جنة واما الى نار الا إن التثبط في هذا المكان لهو الضلال المبين وفي ذلك اقول :

اقصر عن لهوه وعن طربه وعف في حبه وفي عربه
فليس شرب المدام همته ولا اقتناص الظبي من اربه
قد آن للقلب ان يفيق وان يزيل ماقد علاه من حجبه
الهاه عما عهدت يعجبه خيفة يوم تبلى السرائر به
يانفس جدي وشمري ودعي عنك اتباع الهوى على لغبه
وسارعي في النجاة واجتهدي ساعية في الخلاص من كربه

علي احظى بالفوز فيه وأن أنجو من ضيقه ومن لهبه
يا ايها اللاعب الجد به الـ دهر اما تتقي شبا نكبه
كفاك من كل ماوعظت به ما قد أراك الزمان من عجبه
دع عنك داراً تفنى غضارتها ومكسباً لاعباً بمكتسبه
لم يضطرب في محلها احد الا نبا حدها بمضطربه
من عرف الله حق معرفة لوى وحل الفؤاد في رهبه
مامنقضي الملك مثل خالده ولا صحيح التقى كمؤتشبه
ولا تقي الورى كفاسقهم وليس صدق الكلام من كذبه
فلو أمنا من العقاب ولم نخش من الله متقى غضبه
ولم تخف ناره التي خلقت لكل جاني الكلام محتقبه
لكان فرضاً لزوم طاعته ورد وفد الهوى على عقبه
وصحة الزهد في البقاء وان يلحق . تفنيدنا بمرتقبه
فقد رأينا فعل الزمان باهـ ـليه كفعل الشواظ في حطبه
كم متعب في الآله مهجته راحته في الكريه من تعبه
وطالب باجتهاده زهر الـ دنيا عداه المنون عن طلبه
ومدرك ما ابتغاه ذي جدل حل به ما يخاف من سببه
وباحث جاهد لبغيته فانما بحثه على عطبه
بينا ترى المرء سامياً ملكاً صار الى السفل من ذرى رتبه
كالزرع للرجل فوقه عمل ان يتم حسن النمو في قصبه
كم قاطع نفسه اسى وشجاً في اثر جد يجد في هربه
أليس في ذاك زاجر عجب يزيد ذا اللب في حلى ادبه
فكيف والنار للمسيء اذا عاج عن المستقيم من عقبه
ويوم عرض الحساب يفضحه الـله ويبدي الخفي من ريبه

من قد حباه الاله رحمته ... موصولة بالمزيد من نشبه(١)
فصار من جهله يصرفهـا ... فيما نهى الله عنه في كتبه
أليس هذا أحرى العباد غداً ... بالوقع في ويـله وفي حربه
شكراً لرب لطيف قدرته ... فينا كحبل الوريد في كثبه
رازق اهل الزمان اجمعهم ... من كان من عجمه ومن عربه
والحمـد لله في تفضـله ... وقمعـه للزمانـ في نوبه
أخدمنا الارض والسماء ومن ... في الجو من مائه ومن شهبه
فاسمع ودع من عصاه ناحية ... لايحمل الحمـل غير محتطبه

واقول ايضاً :

اعارتك دنيـا مسترد معـارها ... غضارة عيش سوف يذوي اخضرارها
وهل يتمنى المحكم الرأي عيشة ... وقد حان من دهم المنايا مزارها
وكيف تلذ العـين هجعة ساعة ... وقد طال فيما عاينته اعتبارهـا
وكيف تقر النفس في دار نقلة ... قد استيقنت ان ليس فيها قرارها
وأنى لها في الارض خاطر فكرة ... ولم تدر بعد الموت اين محارها
أليس لها في السعي للفوز شاغل ... اما في توقيها العذاب ازدجارها
فخابت نفوس قادها لهو ساعة ... الى حر نار ليس يطفى أوارهـا
لها سائق حاد حثيث مبـادر ... الى غير ما أضحى اليـه مدارها
تراد لامر وهي تطلب غـيره ... وتقصد وجهاً في سواه سفارها
أمسرعة فيما يسؤ قيامهـا ... وقد أيقنت ان العـذاب قصارها
تعطـل مفروضاً وتعنى بفضـلة ... لقد شفها طغيانهـا واغترارها
الى مالها منه البلاء سكونهـا ... وعما لهـا منه النجاح نفـارها

---

(١) في الاصل : من نعمه ، والصواب ماصححناه

وتعرض عن رب دعاها لرشدها ... وتتبع دنيا جد عنها فرارها
فيا ايها المغرور بادر برجعة ... فلله دار ليس تخمد نارها
ولا تتخير فانياً دون خالد ... دليل على محض العقول اختيارها
أتعلم ان الحق فيما تركته ... وتسلك سبلاً ليس يخفى عوارها
وتترك بيضاء المناهج ضلة ... لبهماء يؤذي الرجل فيها عثارها
تسر بلهو معقب بندامة ... اذا ما انقضى لاينقضي مستثارها
وتفنى الليالي والمسرات كلها ... وتبقى تباعات الذنوب وعارها
فهل انت يامغبون مستيقظ فقد ... تبين من سر الخطوب استتارها
فعجل الى رضوان ربك واجتنب ... نواهيه اذ قد تجلى منارها
يجد مرور الدهر عنك بلاعب ... وتغرى بدنيا ساء فيك سرارها
فكم امة قد غرها الدهر قبلنا ... وهاتيك منها مقفرات ديارها
تذكر على ماقد مضى واعتبر به ... فان المذكي للعقول اعتبارها
تحامي ذراها كل باغ وطالب ... وكان ضماناً في الاعادي انتصارها
توافت ببطن الارض وانشت شملها ... وعاد الى ذي ملكة إستعارها
وكم راقد في غفلة عن منية ... مشمرة في القصد وهو سعارها
ومظلمة قد نالها متسلط ... مدل بايد عند ذي العرش ثارها
أراك اذا حاولت دنياك ساعياً ... على انها باد اليك ازورارها
وفي طاعة الرحمن يقعدك الونا ... وتبدي أناة لايصح اعتذارها
تحاذر اخواناً ستفنى وتنقضي ... وتنسى التي فرض عليك حذارها
كأني ارى منك انبرم ظاهراً ... مبيناً اذا الاقدار حل اضطرارها
هناك يقول المرء من لي باعصر ... مضت كان ملكاً في يدي خيارها
تنبه ليوم قد اظلك ورده ... عصيب يوافي النفس فيها احتضارها
تبرأ فيه منك كل مخالط ... وان من الآمال فيه انهيارها

فأودعت في ظلماء ضنك مقرها يلوح عليها للعيون اغبرارها
تنادى فلا تدري المنادي مفرداً وقد حط عن وجه الحياة خمارها
تنادي الى يوم شديد مفزع وساعة حشر ليس يخفى اشتهارها
اذا حشرت فيه الوحوش وجمعت صحائفنا واشتال فينا انتشارها
وزينت الجنات فيه وازلفت واذكي من نار الجحيم استعارها
وكورت الشمس المنيرة بالضحى واسرع من زهر النجوم انكدارها
لقد جل امر كان منه انتظامها وقد حل امر كان منه انتثارها
وسيرت الاجبال والارض بدلت وقد عطلت من مالكيها عشارها
فاما لدار ليس يفنى نعيمها واما لدار لا يفك اسارها
بحضرة جبار رفيق معاقب فتحصى المعاصي كبرها وصغارها
ويندم يوم البعث جاني صغارها وتهلك اهليها هناك كبارها
ستغبط اجساد وتحي نفوسها اذا ما استوى اسرارها وجهارها
اذا حفهم عفو الاله وفضله واسكنهم داراً حلال عقارها
سيلحقهم اهل الفسوق اذا استوى بحلبة سبق طرفها وحمارها
يغر بنو الدنيا بدنياهم التي يظن على اهل الحظوظ اقتصارها
هي الام خير البر فيها عقوقها وليس بغير البذل يحمى ذمارها
فما نال منها الحظ الا مهينها وما الهلك الا قربها واعتمارها
تهافت فيها طامع بعد طامع وقد بان للب الذكي اختبارها
تطامن لغمر الحادثات ولا تكن لها ذا اعتمار يجتبيك غمارها
وايك ان تغتر منها بما ترى فقد صح في العقل الجلي عيارها(١)
رأيت ملوك الارض يبغون عدة ولذة نفس يستطاب اجترارها

---

(١) في الاصل غيارها والصواب ما صححناه

وخلوا طريق القصد في مبتغاهم لتبعه الصفار جم صغارها
وان التي يبغون نهج بقية مكين لطلاب الخلاص اختصارها
هل العز الا همة صح صونها اذا صان همات الرجال انكسارها
وهل رابح الا امرؤ متوكل قنوع غني النفس باد وقارها
ويلقى ولاة الملك خوفاً وفكرة تضيق بها ذرعاً ويفنى اصطبارها
عياناً ترى هذا ولكن سكرة أحاطت بنا ما ان يفيق خمارها
تدبر من الباني على الارض سقفها وفي علمه معمورها وقفارها
ومن يمسك الاجرام والارض امره بلا عمد يبنى عليه قرارها
ومن قدر التدبير فيها بحكمة فصح لديها ليلها ونهارها
ومن فتق الامواه في صفح وجهها فمنها يغذى حبها وثمارها
ومن صير الالوان في نور نبتها فأشرق فيها وردها وبهارها
فمنهن مخضر يروق بصيصه ومنهن ما يغشى اللحاظ احمرارها
ومن حفر الانهار دون تكلف فثار من الصم الصلاب انفجارها
ومن رتب الشمس المنير ابيضاضها غدوا ويبدو بالعشي اصفرارها
ومن خلق الافلاك فامتد جريها واحكمها حتى استقام مدارها
ومن ان ألمت بالعقول رزية فليس الى حي سواه افتقارها
تجد كل هذا راجع نحو خالق له ملكها منقادة وأيتمارها
أبان لنا الآيات في انبيائه فأمكن بعد العجز فيها اقتدارها
فانطق افواهاً بالفاظ حكمة وما حلها اثغارها واتغارها
وابرز من صم الحجارة ناقة واسمعهم في الحين منها حوارها
ليوقن اقوام وتكفر عصبة أتاها باسباب الهلاك قدارها
وشق لموسى البحر دون تكلف وبان من الامواج فيه انحسارها
وسلم من نار الانوق خليله فلم يؤذه احراقها واعتزارها

وجبى من الطوفان نوحاً وقدهدت   به أمـة ابدا الفسوق شرارها
ومكن داوداً بأيد ، وابنه   فتصييرها ماسق له وبدارها
وذلل جبـار البلاد لامره   وعلم من طير السماء حوارها(١)
وفضل بالقرآن امة احمـد   ومكن في اقصى البلاد مغارها
وشق له بـدر السماء وخصـه   بآيات حق لا يخل معـارها
وأنقذنا من كفر اربابنـا به   وكان على قطب الهلاك منارها
فما بالنا لانترك الجهل ويحنـا   لنسلم من نار ترامى شراها

هنا اعزك الله انتهى ماتذكرته ايجاباً لك وتقمناً لمسرتك ووقوفاً عند امرك ولم امتنع ان اورد لك في هذه الرسالة اشيـاء يذكروها الشعراء ويكثرون القول فيها موفيات على وجوهها ومفردات في ابوابها ومنعمات التفسير مثـل الافراط في صفة النحول وتشبيه الدموع بالامطار وانها تروي السفار وعدم النوم البتة وانقطاع الغذاء جملة الا انها اشياء لاحقيقة لها وكذب لاوجه له ولـكل شيء حد وقد جعل الله لـكل شيء قدراً . والنحول قد يعظم ولو صـار حيث يصفونه لـكان في قوام الذرة او دونها ولخرج عن حد المعقول . والسهر قـد يتصل ليالي ولـكن لو عدم الغذاء اسبوعين لهلك وانما قلنا ان الصبر عن النوم اقل من الصبر عن الطعام لان النوم غذاء الروح والطعام غذاء الجسد وان كانا يشتركان في كليهما ولـكنا حكينا على الاغلب ، واما الماء فقد رأيت ان ميسوراً البناء جارنا بقرطبة يصبر عن الماء اسبوعين في حمارة القيظ ويكتفي بما في غذائه من رطوبة .وحدثني القاضي ابو عبد الرحمن بن جحاف انه كان يعرف من كان لايشرب الماء شهراً وانما اقتصرت في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لايمكن وجود سواها اصلاً وعلى اني قد اوردت من هذه الوجوه المذكورة

---

(١) الحوار المحاورة وفي الاصل جوارها بالجيم

اشياء كثيرة يكتفى بها لئلا اخرج عن طريقة اهل الشعر ومذهبهم وسيرى كثير من اخواننا اخباراً لهم في هذه الرسالة مكنياً فيها من اسمائهم على ما شرطنا في ابتدائها . وانا استغفر الله تعالى مما يكتب الملكان ويحصيه الرقيبان من هذا وشبهه استغفار من يعلم ان كلامه من عمله ولكنه ان لم يكن من اللغو الذي لايؤاخذ به المرء فهو ان شاء الله من اللمم المعفو والا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب وعلى كل حال فليس من الكبائر التي ورد النص فيها

وانا اعلم انه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفي لمثل هذا ويقول انه خالف طريقته وتجافى عن وجهته وما احل لاحد ان يظن في غير ماقصدته قال الله عز وجل ﴿ يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن أثم ﴾ وحدثني احمد بن محمد بن الجسوري ثنا بن ابي دليم ثنا بن وضاح عن يحي ابن ملك بن انس عن ابي الزبير المكي عن ابي شريح الكعبي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ﴿ اياكم والظن فانه اكذب الكذب ﴾ وبه الى ملك عن سعيد بن ابي سعيد المقبري عن الاعرج عن ابي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً اوليصمت ﴾ وحدثني صاحبي ابو بكر محمد بن اسحق ثنا عبد الله بن يوسف الازدي ثنا يحي بن عائذ ثنا ابو عدي عبد العزيز بن علي بن محمد بن اسحق بن الفرج الامام بمصر ثنا ابو علي الحسن بن قاسم بن دحيم المصري ثنا محمد بن زكرياء العلائي ثنا ابو العباس ثنا ابو بكر عن قتادة عن سعيد بن المسيب انه قال : وضع عمرو بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثماني عشر كلمة من الحكمة منها ﴿ ضع امر اخيك على احسنه حتى يأتيك مايغلبك عليه ﴾ ولاتظن بكلمة خرجت من فيء امريء مسلم شرا وانت تجد لها في الخير محملاً . فهذا اعزك الله ادب الله وادب رسوله صلى الله عليه وسلم وادب امير المؤمنين وبالجملة فاني لا اقول

بالمراياة ولا انسك نسكاً اعجمياً ومن ادى الفرائض المأمور بها واجتنب المحارم المنهي عنها ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الاحسان ودعني مما سوى ذلك وحسبي الله. والكلام في مثل هذا انما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب وان حفظ شيء وبقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطري لعجب على مامضى ودهمني فانت تعلم ان ذهني متقلب وبالي مهصم بما نحن فيه من نبو الديار والجلاء عن الاوطان وتغير الزمان ونكبات السلطان وتغير الاخوان وفساد الاحوال وتبدل الايام وذهاب الوفر والخروج عن الطارف والتالد واقتطاع مكاسب الآباء والاجداد والغربة في البلاد وذهاب المال والجاه والفكر في صيانة الاهل والولد واليأس عن الرجوع الى موضع الاهل ومدافعة الدهر وانتظار الاقدار لاجعلنا الله من الشاكين الا اليه واعادنا الى افضل ماعودنا وان الذي ابقى لاكثر مما اخذ والذي ترك اعظم من الذي تحيف ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لاتحد ولايؤدى شكرها والكل منحه وعطاياه ولاحكم لنا في انفسنا ونحن منه واليه منقلبنا وكل عاربة فراجعة الى معيرها وله الحمد اولا وآخراً وعوداً وبدأ وانا اقول

جعلت اليأس لي حصناً ودرعاً ... فلم البس ثياب المستضام

واكثر من جميع الناس عندي ... يسير صانني دون الانام

اذا ماصح لي ديني وعرضي ... فلست لما تولى ذا اهتمام

تولى الامس والغد لست ادري ... أأدركه ففيما ذا اغتمام

جعلنا الله واياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين آمين آمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة لابي محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم رضي الله عنه بحذ..... اكثر اشعارها وابقاء العيون منها تحسيناً لها واظهاراً لمحاسنها وتصغيراً لحجمها وتسهيلاً لوجدان المعاني الغريبة من لفظها بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه وفرغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

صحيفة

اصلاح الخطأ وبيان الصواب

ص	س	الخطأ	الصواب
١	٢٠	خيره	حيره
٥	١١	تزوخها	تزوجها
١٦	٨	ابن	بن
..	٢٣	حقر	حقرا
١٨	٨	الى	لي
٢٤	٢٢	سقاط	اسقاط
٢٨	٩	بفض	بعض
٣٠	١	احدهما	احداهما
٣١	١٩	يصبغ	بصبغ
٣٧	١٤	ينصرم	يتصرم
..	٢٠	صفاه	صفاته
٣٩	٤	الا ف	الانف
٤٠	٦	وجفاهه	وجفاءه
..	٢٠	ابن	ابي
٤١	١٤	عنقها	عتقها
..	٢٠	الري الرد	الري
٤٣	١٤	الغضبا	الغضا
٤٥	١٥	ويحد	ويجد
٤٦	٦	طفرت	ظفرت
٤٨	٢٠	الحوارث	الحوادث

الجديد من مطبوعاتنا

ائمة الأدب

عنوان لرسائل متسلسلة في تراجم اعلام الادب وما قيل فيهم ودراسة ادبهم وشواهد اقوالهم وقد صدر منها :

١ —



٢ —



الاستاذ الكبير خليل مردم بك اشهر من ان يعرف في هذه الكلمة، وهو الاديب البارع في الابداع، والمجيد في الوصف، تقرأ شعره فترى فيه اسمى العواطف، واجمل الصور، في خير الاساليب واخف الاوزان ... وتقرأ دراسته وتحليله فترى مرآة يتمثل فيها زمن من يدرسه او يحلله ومحيطه، ونفسه واخلاقه وادبه وفنه واضحاً بيناً، وتلك ميزة لاديبنا الكبير لانكاد نجد مثلها عند غيره من الادباء الذين يبرعون في الابداع، ويقصرون في الوصف، او يتقدمون في هذا ويتأخرون في ذاك ...

وقد لجأت اليه مكتبتنا العاملة على نشر الآداب العربية والآثار المفيدة حينما رأت حاجة دمشق الى هذا النشر، فتفضل عليها بسلسلة من الرسائل دعاها: «ائمة الادب» وجعل فكرتها الاساسية ان يلم لمامة موجزة بزمن الاديب ثم يرى اثر هذا الزمن في تكوين اخلاقه ونفسيته ويرى تجلي هذه النفسية في آثاره الادبية ... وليس الغرض منها التبسط والاسهاب بل الايجاز والاختصار وسد حاجة الطلاب الى مثلها

وقد كانت اولى هذه الرسائل في دراسة الجاحظ والثانية في ابن المقفع، ولانحاول ان نلخصهما اونبين فضلهما وسمو بحثهما خشية منا ان نغمطهما في هذا البيان والتلخيص حقهما بل ندع القارىء يطالعهما ويحكم عليهما بنفسه

وسيصدر قريباً الرسالة الثالثة:

الوزيران

ابن العميد و الصاحب بن عباد

صفحات الرسالة (٩٦) وثمنها قرشان ونصف مصري



ـمام يوسف البديعي المتوفي سنة ١٠٧٣ هـ

يقع في مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير

ما نحسب ان في شعرائنا من كتب عنه ودرس اكثر من المتنبي ولكنا لا نرى في كل ما كتب عنه اللهم الا ما كتبه العقاد واضراب العقاد شيئاً يصح ان يسمى نقداً او دراسة ... وكل من تكلم فيه لايعدو ان يكون واحداً من اثنين: مولع بأدب الغرب يحاول تطبيقه على آدابنا وانتهاج مناهجه دون ان يكون له في الادب العربي قدم ثابتة فيخرف ويسف ويحسب انه يقول شيئاً ، وجامد على آداب العرب لايرى لغيرها فضلاً ولا يعترف بسواها بعبقرية وبراعة فيكتب اليوم كما كان يكتب الناس قبل ثلاثمائة سنة ... على ان فيمن كان قبل ثلاثمائة سنة من استطاع ان ينتهج في كتابته نهجاً صالحاً فيه تقصي العرب وجمعهم ، وتحليل الغربيين ودراستهم ، وان من هؤلاء البديعي صاحب الصبح المنبي الذي تنشره اليوم مكتبتنا نشراً جيداً والذي بلغ من قدره ان واحداً ممن درس المتنبي لم يستغن عن الاقتباس منه ولا الاستفادة من مادته



المتوفى سنة ٦٧٦

المسماة

بالمسائل المنثورة

صفحاتها (١٣٦) ثمنها خمسة قروش مصرية

الرسالة المستطرفة

لبيان مشهور كتب السنة المشرفة

تقع في (١٨٠) صفحة ثمنها ٥ قروش مصرية

جمع السيد الكتاني بين علمي الظاهر والباطن وامتاز باخلاق لاتعدو ان تكون مرآة تتجلى فيها السنة الطاهرة على صاحبها اشرف الصلاة والسلام ومهما يكن في الامر فان لكتبه ظاهراً وباطناً اما ظاهرها فهو مايرى فيها القارىء من علم وحجة ، واما باطنها فهو ما يفيض من ثنايا سطورها من نور الهي هو نور طريق الله .. ورسالته المستطرفة مفيدة لكل مشتغل بعلم الحديث ومعرفة رجاله